افعوان

☆

لما يزل الفكر العربي في قيد ، ولما يزل الحاكم العربي في قيد .
اما الفكر فهو جاد في معابر الانسلال والتملص الى قمة الانطلاق .

اما الحاكم فهو جاد في مواكب الاتراف والتغطرف الى هوة الانزلاق .

عدوان ، ذاك يريد ان ينشىء ، وذا يريد ان ينشىء . اما الاول فهمه في الانشاء ، انشاء سحابات الحق والمحبة والبطولة الهادية ، اما الثاني فهمه في الانشاء انشاء بيته ، او قل فروع بيته ، فتنعم مترفة حتى الاغصان والاوراق والاماليد بدم الرعية ، وعرق جبينها المكد لا كما ينعم الراعي العادل بايادي الرعية الحرة العادلة ، بل كما ينعم المغتصبون الاقوياء او شبه الاقوياء بثمار العاملين الضعفاء ، او شبه الضعفاء .

من هنا نزل الفكر منازله ، وارتفع حتى الجوزاء قدره واراد ان ينشىء . ليعلم هؤلاء العاملين المخاصين الذين ظنوا انفسهم ضعفاء ، كيف تكون النجاة من اولئك الاقوياء . بأن يبسط مدى بصرهم فينبسط في الانطلاق مدى اقدامهم وسواعدهم ، وقلوبهم ايضاً ، وتتقدس عندهم التضحية ، فتتقدس صور البطولة ويخرجون من القيد ليحطموه كما تخرج النسور من جوانحها لتنشىء لها على ذاتها جوانح اشد في التحليق وابعد في الانصباب .

ويقف الحاكم العربي من الفكر العربي موقف الحذر والقلق والخوف ، ويراه كلما رآه ، افعى تلتف في ثورة الهجوم على اواصل عنقه فتنثر حبات اللؤلؤ وزمرد العقود ، فتخلو القصور كما خلت الابراج القديمة الا من احاديث الافاعي ولطخات الدماء الجانية .

وعندي انه يجب على الفكر العربي اليوم ان يكون افعى عنيفة تحمل السم والناب ، والحلقات المتماسكة الشديدة ، والجرأة واليقظة والتأمل والحقد العميق ، والشجاعة على ارتياد الآجام والمستنقعات الكثيفة والحصون المحصنة وبطون الارض الخفية .

افعى لا تعاقب كما تقول الاسطورة بنقص جناحها او بتر ارجلها او المشي على بطنها او اعراء جلدها او شق لسانها او غضب الله على مهارتها في مهارة الاغواء بل افعى تنساب في تنبه الاصغاء ، والاطراق والطموح بين مشابك الصخور ومحابك الاودية ومصاعد الصحارى والجبال . فاذا رأت حاكماً عربياً « طغى وبغى وتكبر وتجبر » كما يقول عن الحاكم رفيقنا القديم عبدالله بن المقفع الذى سفك الحاكم دمه بين السوط والطاروق قاتلته قتال الرقطاء حتى تقتل في الجهاد أو يقتل في طغيه وبغيه وتكبره وتجبره بين مهاوي السوط ومضايق الطاروق .

افعى ، وما يضيرها في الواقع ان تنفث سمها فقد اثبتت عبقرية التحليل ان السم اشد الادوية في قتال الجراثيم ، وان الحقد العميق ارفع خلة يحملها الانسان الشريف العامل ضد الانسان الجاني .

والفكر الحر ليس بالفكر المسموم ولكنه الفكر الذي يحمل في مقابض فمه السم للقضاء على الفكر المسموم .

لن يتحرر المفكرون العرب من قيد الحاكم العربي الا يوم يتخلقون باخلاق الافاعي المخيفة التي تملأ طرق الغابات والبيوت روعاً وغضباً ووجلًا لان من ابرز صفات الظالم انه جريء في مظهره جبان في قلبه . فعلينا نحن المفكرين ان نأكل باقلامنا قلبه ليهوي ، فقد هوى كثيرون من الظالمين كأنهم سقوف الظلمة .

علينا ان ننساب في كل عتمة انسياب الافاعي ، لكي نمزق خيوط هذا الشبح الضخم الذي عششت فيه عناكب الشر الحاكم .

« واوحينا الى موسى ان ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » .

الياس خليل زخريا

كتاب دوهامل الاخير*

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

☆

لكتابة الاوربيين عن اسفارهم في الشرق القريب تاريخ يشوق خصوصاً اولئك الذين يريدون ان يتبينوا صلة الغرب بالشرق على مر الاجيال ، ذلك انها – فضلاً عما تفيده من انباء ومشاهدات تاريخية ذات قيمة وثقية منقطعة النظير في بعض الاحيان عن البلاد التي تتحدث عنها – تفيد كذلك في فهم تطور معنى الشرق في ذهن الاوربي . اذ لا ريب في ان الكاتب الرحالة لا يشاهد ما يشاهد بعيون صافية ، بل بعيون تنكسر عليها الوقائع والمشاهدات وفقاً لزاوية انكسار خاصة يقدر انحرافها بالجهاز التحليلي المهيأ في ذهن الكاتب ، وهو بدوره يتوقف على المعلومات المتحصلة والاحكام الشائعة في البيئة التي صدر عنها . ثم ينمي هذا كله ما هنالك من ميل طبيعي الى تصيد المثير وانتهاب الصارخ الذي قد لا يبهر منه الا الجانب الزائف فيه .

بهذا كله يأتي الكاتب الاوربي مزوداً قبل ان يطأ بقدميه بلاد الشرق . فماذا فيه ؟ فيه حظ الاسطورة اكبر الف مرة من حظ الواقع والتاريخ . فمنذ ان انتشر مبدأ القوميات في اوربا خصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والقوم لا يكادون يعرفون من التاريخ الا ما يتصل بأمتهم ، وان عرفوا عن الخارج شيئاً فدائماً وفقاً لما تمليه الدوافع النابعة من ينبوع العصبية . واذا ما خرج عن نطاق التاريخ السياسي بمعناه المحدود لم يظفر الا بمثل « ألف ليلة وليلة » وكلها تضرب بأصولها في دنيا الاساطير . وفكرة التاريخ العالمي – وان وجدت لها نصيراً ضخماً في شخص امانويل كنت I. Kant في رسالته الصغيرة بعنوان : « افكار عن التاريخ بالمعنى العالمي »(1) – لم تستطع مع ذلك ان تشق طريقها الى عقول المؤرخين الاوربيين لانهم اصطدموا بمبدأ القوميات وما عليه من عصبية جامحة ونعرة قومية ثم عنصرية قد تتذرع بأسباب الاسطورة ان لم تسعفها وسائل التاريخ كما يشاهد مثلاً عند ألفرد روزنبرج ومن ضرب على قالبه من المؤرخين المعاصرين ، وهكذا ضاعت فكرة « التاريخ بالمعنى العالمي » كما ضاعت لذاتهـا من افكار الحالمين النبلاء من رجـال عصر التنوير في اوربا في اواخر القرن الثامن عشر . وحتى لو شاء ذلك الكاتب الرحالة ان يخرج عن هذا النطاق لما اسعدته الاسفار الجيدة المكتوبة بروح نزيهة ، وعن معرفة مباشرة وحكم مستقيم .

وأنا ازعم في غير مبالغة ان الرحالة لا يمكن ان يطرح هذه الافكار السابقة المتسلطة لما ان يدخل تلك البلاد لاول مرة ، بل هي جزء من امتعته حملة في ذهنه الى جانب ما يحمل من حقائب بيده . وليس من المستطـاع في الادراك الانساني ان ينبذها : فالنزاهة والامانة وهمان كبيران في هذا المجال . واذا كنا بالنسبة الى الارصاد الفلكية نتحدث عن « معادلة شخصية » لكل راصد تجعله لا يستطيع الرصد والمشاهدة للظواهر الفلكية الا وفقاً لمعاملها فكذلك نستطيع ان نتحدث عن « معـادلة شخصية » عند كل رحالة ، تتكون عناصرهـا من تلك العصبية والنعرة والافكار المتسلطة الشائعة والاحكام السابقة .

فاذا اضفت الى هذا كله ان الغـالب في امر هؤلاء الكتّاب انهم جاهلون بلغات الشرق ، وانهم – لاسباب من الترف المادي او الترفع الاجتماعي او امتداداً لتلك العقلية المتهينة سابقاً او تيسيراً لاسباب العيش والتفاهم السريع – لا يداخلون الا ابناء قومهم النازحين الى تلك البلاد فإن استبطنوا شيئاً فانما يستبطنون دخائل

---

* G. Duhamel : Consultation aux Pays d'Islam, Mercure de France, Paris, 1947

(1) ترجمناها لمجلة « جمعية الدراسات التاريخية المصرية » التي ستظهر عما قليل .

ذويهم في المهجر – نقول اذا اضفت هذا كله استطعت ان تقدر الصدق في أنبائهم واحكامهم . وانت تعلم العقلية الخاصة التي تتكون بين ابناء الامة الواحدة في مهجرهم ، خصوصاً ان كانوا على شعور – كاذب او صادق – بسمو عنصري واجتماعي على القوم الذين يتزلون بينهم ، ولذا تراهم في الغالب يكونون جزراً متناثرة يفصلها عن ارض الوطنيين بحر لا يسهل غوره واذا كان ثمت جسور ومعابر قد تصل ما بين الجزر وارض الوطنيين الاصليين ، فانها فضلاً عما فيها من طابع المعبر – اي الجامع الموفق بين الطرفين المتباعدين – فانها في حالة الشرق خاصة بازاء الغرب تسيء الى الاول مائة مرة مما تسيء الى الغرب ، الا من عصم ربك وقليل ما هم ، وذلك لان الشعور بالدونية يدفع الى محاكاة الاعلى وادعاء الترفع عن الادنى ، ولذا تراهم أشباه وطنيين مهجنين قد فقدوا شخصياتهم وعقولهم وباعوا ارواحهم لشيطان الاقتداء الزائف . ولهذا فان الامر في مبلغ الصدق في انبائهم كالامر في مبلغ صدق انباء النازحين الغرباء .

تلك ملاحظات عامة نسوقها بمناسبة كتاب لطيف الحجم كتبه جورج دوهامل G. Duhamel عضو الاكاديمية الفرنسية والكاتب الفرنسي المشهور ، صاحب « اخبار باسكييه » ويوميات سالفان ، تلك الشخصية الادبية الخالدة التي تمثل عقلية المواطن البورجوازي الفرنسي خير تمثيل ، وهذا الكتاب هو « استشارة في بلاد الاسلام » الذي بدأ بأن نشر جملة صالحة من فصوله في جريدة « الفيجارو » اواخر حزيران الماضي واواخر تموز (يوليو) ثم نشره في آخر تموز كتاباً قائماً برأسه .

والغريب في امر هذا الكتاب ان صاحبه قد خرج على السنّة المألوفة لدى كبار الكتاب الفرنسيين الذين يأتون الشرق ، فقصره على الجانب السياسي والاجتماعي في البلاد العربية التي زارها وهي مصر ولبنان والمغرب العربي (تونس والجزائر ومراكش) بعد ان قام برحلة فيها ابان شتاء هذا العام كما لا يزال يذكر الناس ، وقد القى في بعضها محاضرات كانت دون مستواه المعروف الى حد أشاع الخيبة في نفوس المعجبين به – ونحن من بينهم – ممن لا تزال ترن في ذاكراتهم تلك الصفحات الرائعة في مختلف مؤلفاته .

وهو في هذا الكتاب كذلك قد خيب الظن مرة اخرى . فبدلاً من ان يأتي كاتباً فناناً يسجل مشاهداته في الطبيعة والآثار وما جرى في نفسه من احساس وانفعالات بازاء ما شاهد – كما فعل غيره ممن سبقه من كبار الكتّاب الفرنسيين ابتداء من فولنيه Volney في اواخر القرن الثامن عشر مارّين بلامرتين وفرومنتان Fromentin ورينان وباريس Barrès حتى نبلغ ادوار هريو Ed. Herriot – نراه في هذا الكتاب الصغير سياسياً خالصاً قد شاء ان يسجل احوالاً سياسية تتصل خصوصاً بموقف بلاده من تلك البلاد العربية فهو يهدف الى الدفاع عن موقف سياسي ، ووفقاً لهذا كيف الكتاب كله . فماذا عسى ان ينتظر من كتاب دفاع Apologie كهذا ! على ان هذا قد كان يتسع له وجه العذر لو انه تحرى الوقائع من مصادرها الاصلية ثم استخلص منها ما شاء ان يستخلص من نتائج ، انما كان فريسة اولاً لتلك « المعاداة الشخصية » السياسية والقومية ، وكان فريسة ثانياً للاوهام والاحكام السابقة الشائعة بين النازحين من قومه ، وكان فريسة ثالثاً لشيء وهمي يفرضه على نفسه من بلغ مركزه عضواً بالاكاديمية كما حدثني بذلك عالم من اعلام الاستشراق الفرنسي والعالمي .

لهذا ما كدنا نحن نقرأ الكتاب مقالات في جريدة « الفيجارو » اثناء مقامنا بباريس حتى ارسلنا له رداً مفصلاً على كثير من ملاحظاته واحكامه في ذلك الكتاب . فارسل الينا رداً في ١٠/٢١ يقول فيه بعد الديباجة التي يذكر فيها انه بعد ان عاد من رحلة في امريكا الجنوبية لزم الفراش طوال اسابيع فلم يبارح مخدعه ولا يزال يعاني آلام عال مبرحة – انه يقدر لهجة النقد الذي وجهته الى كتابه وينكر انه يعكس آراء النازحين من قومه ثم فيقول : « انا رأيت خلقاً كثيراً من المسلمين وافسحت المجال الأكبر لشهاداتهم . أما ان هذه « الاستشارة في بلاد الاسلام » – وهذا عنوان ذلك الكتاب الصغير – لا تقدم حلاً نهائياً ، فهذا امر لست استغربه كثيراً . فان هذه المشاكل (التي عالجها في الكتاب) متشابكة رهيبة ، بيد أني حاولت جهدي على الاقل ان اعرضها على نحو نزيه ومخلص ، مستطلعاً انباءها من المسلمين والاوربيين على السواء » .

غير اننا نخشى ان يكون اولئك المسلمون (وهو يشير الى اغلبهم بالحروف الاولى من اسمائهم) هم من اولئك النفر الذين ذكرناهم ، اعني الجسور بين جزر النازحين وبين المواطنين الاصليين ، فأحكامهم لا تزيد كثيراً في قيمتها عن احكام أولئك النازحين .

عبد الرحمن بدوي

لا يدري صاحبي على التجديد كيف أصبح شاعراً .. فهو لم يعنَ بعلم الشعر وما يتصل به من مقاييس وموازين وتفاعيل ، بل يعود مولد الشعر عنده الى ذلك اليوم الذي اعتاد ان ينتظر فيه عروس احلامه الطفلة على وصيد باب المدرسة منذ اعوام واعوام ... كانت – يسر الله لها الحياة حيث سارت – قطعة من أوراق الورد وانداء الضحى ، اذا ما اقبلت في الصباح خفقت لها قلوب جديدة العهد بالخفقان ، وضحك لها الملعب ومقعد الدرس ، وانتشى الكتاب بين اناملها الفضة ، وازدهت الارض بخطوها الناعم ، وراحت النسمات العابثة بشعرها تحمل حديث العبير الى هؤلاء الذين اصبحوا اليوم رجالا ... وكان بيننا في ذلك العهد – سقياً له ولنعمائه – منافسة وتسابق فالذي كان يحظى بتحيتها قبل سواه قضى كل نهاره سعيداً ... ويومئذ لم نكن لنعرف ماذا بنا على كل حال ، ولماذا نؤثر تلك الطفلة بكل هذه العناية ، ولكنها كانت تضفي جواً من الصفاء علينا جميعاً ، فيستحيل ذلك التنافس الى ضحكات بريئة من صدورنا القوية ، وكان صاحبي اذا ما رآها شاع في عينيه بريق غريب وظهر عليه القلق ، فكنا لا نقدر على فهم حاله ، ولعله يومئذ هو الآخر كان مثلنا بعيداً عن استجلاء الذي يمر به ، وكنت أقرب الرفاق اليه ، اكاد لا اتركه أبداً ، فحاولت في سذاجة ان المّ ببعض شأنه ، فأنشدني ابياتاً من الشعر كلها حزن ولوعة ، فضحكت من هذا العاشق الصغير الذي جاء في آخر زمان ينافس الشعراء الثقلاء الذين فرض علينا البرنامج استظهار اشعارهم عنوة وقسوة ، ورحت اذيع في الرفاق نبأ مولد شاعر فضحكوا الا اياها .. لم تضحك بل علا خديها احمرار خجول ، وحارت الكلمة بين شفتيها النديتين ، وبعد قليل كانا معاً ... صاحبنا الشاعر وعروس احلامه ما وراء جدار المدرسة في خلوة بريئة ! ينشد هو .. وتسمع هي .. لم تكن مثلنا تهزأ به بل كان اهتمامها لا شك فيه .. انها كانت موضوع قصيدته الاولى ! ..

ويعودان الينا . عاد صاحبي كالعهد



القصيدة المنتحرة

مهداة الى الصديق امين يوسف غراب

بقلم صلاح الاسير

☆

به ضاحكاً رافلا ، فلقد أفرغ قلقه وهمه في أذني عروس احلامه واستراح بعض راحة ، وتناقلت أجواء المدرسة حكاية المتيم الذي ربح بشعره ذلك الملاك الجميل ، فانتقل القلق منه الينا جميعاً ، بعد ان اخذت عروس الاحلام تحبوه دوننا بالتحية المبادهة والبسمة اللعوب .. لقد تغيرت هي ايضاً وأصبح لنظرتها اتجاه وهدف ، واصبح شاغلنا الشاغل ان نعكر ما استطعنا صحو الجو بين هذين الطفلين نكاية بالشعر قبل ان تكون النكاية بهما ! ..

وبعد أيام ، ذهبت ضجة الحدث الجديد ، واصبح همنا الاقبال على صاحبنا لنستمع الى ما تواضعنا وتواضع على تسميته شعراً ، فكان ينشدنا القصيدة بعد القصيدة ، فلقد حل شيطان الشعر فيه حلولا دائماً ، وذهبت كل محاولتنا في انتزاعه منها عبثاً .

ولقد قرأنا ان لكل شاعر شيطاناً يلهمه وينظم له الشعر ، وكان هذا القول جديراً بالتصديق يومئذ ، فسألت صاحبي عن شيطانه واين يلقاه وكيف ينظم له القصيدة؟ فأجاب :– ان شيطاني هنا بينكم جميعاً ولكن اختياره وقع عليّ . والتفت الى وصيد باب المدرسة فأذا هي مقبلة كالحمامة البيضاء في ردائها الابيض ... فانسلت تاركاً للشاعر ان يلتقي شيطانه !.

ونتلاقى في معركة الحياة فاقرأ لصاحبي قصائد هنا وهنا ، فأتساءل وقد اختفى شيطانه الى لا عودة ، اي شيطان جديد ظفر به صاحبي الذي اصبح كالنحلة الواثبة المجتهدة يتنقل على اغصان الرونق والبهاء ، لقد اصبح له الف شيطان ... ولكن حكاية الشيطان الواحد جعلتني – انا الساذج – اسعى الى صاحبي منذ ايام ، فلقيته كعادته باسماً ساخراً ، يبتسم للصعاب ويجابه الامواج ويضحك في المآسي ... فلما حدثته بالقصد من لقياه اومأ الى اكداس من الورق عبثت بها صفرة الضوء وتعاقب الانامل وقال :

– لكل قصيدة شيطان ولكل شيطان قصة .

لا يضيرني القول : انني لم افهم ، فنحن في العادة بطيئو الفهم في منطق الشعراء ، ولكنني اعلم تبرمه بهذا البطء فانتظرت ليتكلم فما يجدرني استعجال ما سيقول ، ولم يخلف ظني فقال :

الى رداء

حنانيكَ . . . هذا الرداءُ الطويلُ ... غويٌّ على الجسدِ الماردِ
به مُتعُ اللون ، نسجُ الضياءِ ... وحبكُ رؤى حلمكَ الشاردِ
يواري مرابعَ قدسيةً ... جنائنَ ممنوعةَ الرائدِ
وبثَّ الخيوطَ انامل قلب ... تدورُ على مغزلٍ هاجدِ
يحبكُ هذا الرداءَ ويلتفُّ ... أفقكِ كالعاشقِ الساهدِ
صباباتهُ طفحت واستراح ... الرواءُ ومدَّ يدي عابدِ
يهي دون صدرك وجه الخيال ... تباركتِ في يومكِ الرافدِ
أهمسٌ على الصدر ام ربوتا ... عبيرٍ وممزوفتا واجدِ
وانت على ليلنا منة ... وما كنتِ بالناكرِ الجاحدِ
لك الامرُ ، للخيطِ للعروةِ ... الخفوقِ على البرعمِ الناهدِ

صلاح الاسير

— لقد انتحرت قصيدتي الاخيرة . . انها امامك اشلاء ، لقد انتحر الشيطان وسلمت الحروف وما ترفو به الحروف . ان على هذه الورقة الصغيرة — التي لا تستدعي انتباهك لو دست عليها في الشارع — عامين من حياة شيطان شعر . . . اتذكر شيطاني الاول ؟ ان الشيطان المنتحر اقل جمالا واكثر سحراً واغراء ، او هكذا كان قبل ان ينتحر ! مات . . . مات .

كدت اتقدم منه بواجب التعزية ، فهؤلاء الشعراء لا يأخذهم الجد الا في الامور التي تتصل بقلوبهم وعواطفهم ، هم يسخرون من كل شيء ، ويطلبون منك ان تجدَّ معهم لأتفه امورهم شأناً . . فلنأخذهم كما هم . هم مرضى لا يستطيعون الحياة الا اذا حل فيهم شيطان واكبر الظن ان هذا الشيطان هو المسيطر على طبائعهم الغريبة .

وانتظرت هنيهة ، فما ينبغي الاستطراد لقد اصبح صاحبي منفعل الاعصاب ، وجمد الكلام على شفتيه . اتراه اسف على ما قال ؟ أباح بالسر ؟ ام اشفق على عقلي الهزيل الذي لم يرقَ الى فهم المشاعر والاحاسيس ؟ وينهد صاحبي ليقول :

— انت . . . ماذا يهمك ؟ الحياة عندك اكلٌ وملبس ورواح وجيئة ، يموت عندك الانسان يوم يموت حقاً ويلحد ويضمه قبر . . انت سعيد ، انت تشقى بموت من تحب مرة واحدة وانا اغبطك على سعادة لم تسعَ اليها ، سعادة بلهاء ، ولكنها سعادة على كل حال .

لا ادري كيف اهدىء من ثورته ، وما سعيت الى ايذائه او النيل منه ، ولكن اهتمامي بأمره جعلني الساعة معه ، ولقد قلبت البصيرة مراراً في الذي قال فلم اصل الى نتيجة . وما يزال بيني وبينه ابعاد عماق ، ووددت لو تنشق الارض لتبتلعني فما تعودت رؤية انسان يشقى ويتفجع امامي في هدوء ، ثائر دون ان تدمع منه العين .

وفجأة يصطفي صاحبي هدوء غامر فيبدو مشفقاً علي ليتم حل الطلسم فيقول :

— في قر الشتاء منذ عامين حل فيَّ شيطان جديد ، شيطان عادي رفعته الى السماء ، وجعلت الورد والعطر بعض امتعائه ، واخصبت الارض لخطوة يخطوها ، ودارت عليه القوافي في حدب وعبادة ، واستحال في مسمعي نغماً كله نعيم وفراديس . . . كنت احسب انه قبل الاطار الذي خلقته له . . . واليوم لقد انهارت صورة الشيطان وانهار هو معها وسلم الاطار . . ان الاطار اليوم يكاد يحتله شيطان اشقر عصف بكياني عصفاً أنساني كل شيء الا ذلك الشيطان الذي انتحر امس وانتحرت معه قصيدته ، هذه قصتي كلها ، أتكفيك ؟ .

تظاهرت بالاكتفاء فلقد ثقل عليَّ جو صاحبي ، فخرجت اسعى في دنيا الناس لأسعد السعادة البلهاء على حد قول صاحبي ، وحمدت الله الذي لم يخلق لي شيطاناً ينتحر ، فتترك صورته الاطار ساعة يشاء ! .

صلاح الاسير

قصيدة الغراب بين بودلير وبو

بقلم فؤاد عازار

☆

كان ادغـار بو قصصيًا وشاعراً . ولد في مدينة بوسطن بامير كا، عام ١٨٠٩ وتوفي وله من العمر اربعون سنة . وكان له قريحة كئيبة ومعذبة، وخيال فذ ونفاذ ، ومن تآليفه كتاب « قصص نادرة » ، وهو واضع هذه القطعة الشعرية التي تعد بحق من اشهر قصـائده . وكانت موضوع تعليق له ولمترجمه .

اما مترجمه فهو الشاعر الفرنسي المشهور شارل بودلير . ولد في باريس عام ١٨٢١ ، اي بعد مولد ادغـار بو باثنتي عشرة سنة ، وتوفي عام ١٨٦٧ . وهو مؤلف كتاب « ازهار الشر » الذي وسمـه بشعور غريب . وكان من الطراز الاول بين الشعراء من حيث غنى الخيال ، وسمو التعبير ، وابتكار الموسيقى اللفظية .

وقد تأثر بودلير بكتابات ادغار بو تأثراً كبيراً جعله يعترف له بأعجابه الشديد به . وقد ترجم قصيدة « الغراب » وعلق عليها شرحاً طويلًا رأينا ان نلخصه بين يدي ترجمتنا للقطعة المذكورة .

لقد قيل ان صناعة الشعر انما وضعت لتكون خاضعة للقصيدة، واليكم شاعراً يدّعي ان قصيدته انما وضعت لتكون خاضعة لصناعة الشعر ، ذلكم هو ادغـار بو الذي كانت له في الحقيقة قريحة فذة ، ووحي اكثر من اي شاعر آخر ، هذا اذا عنينـا بالوحي القوة الشعرية ، والالهام الروحاني ، والقدرة على ابقـاء المواهب الشعرية مستيقظة . وكان مولعاً بالصناعة والتنقيح اكثر من اي شاعر آخر ، وكان يردد ذلك المبتكر الكـامل ، ان الابتكار شيء يحصل بالتمرن ، ولا يستطاع ان يلقن بالتعليم . وكان التعقيد والاتفاق في المعاني عدويه اللدودين . فهل اراد بذلك ان ينفي الشاعرية عن نفسه في سبيل الادعاء الفارغ ، وهو الشـاعر الملهم بسليقته ؟ ام هل صغّر موهبته الشعرية ليجعل مكانها مقاماً لائقاً بالارادة ؟ اني اميل الى هذا الاعتقاد ، ويجب الا انسى ان قريحته المتوقدة كانت تعشق التحليل والـترتيب والاستدراك . وكانت اعز الحكم لديه هذه :« ان كل شيء، سواء كان في قصيدة او قطعة ، في قصة طويلة او صغيرة ، يجب ان يساعد على النهاية او الختام . والكاتب الكبير هو الذي يضع نصب عينيه سطره الاخير عندما يشرع في سطره الاول . » وبناء على هذه الحكمة الرائعة يستطيع المؤلف ان يشرع في تأليفه من آخره ، ويشتغل ، عندما يشاء ، في اي جزء آخر ، الا ان المولعين بالغزل والهيام ، تصعب عليهم هذه الحقيقة ؛ وتظهر لديهم تافهة ، ولكن لكل واحد رأيه الذي يختار . على انه من الضروري ان نبين لهم النفع الذي يكسبه الفن من كثرة الامعان والتدقيق، ونلفت نظر القرّاء الى الجهد الذي يتطلبه هذا الشيء الثمين الذي يسمونه شعراً .

وفوق ذلك ، فانّ قليلًا من التمويه جائز في القصيدة ، بل هو لائق بها ، اذ انه بمثابة الخضاب على وجنتي امرأة حسنـاء بطبيعتها ، او كتابل جديد للعقل .

. . . وهنالك حقيقة راهنة ، وهي : مهما يكن موضوع القصيدة ، ينبغي لنا ان ندقّق فيه ، ونتأمله بكل اهتمام، في سبيل النهاية او الختام ، قبل ان ترحف الريشة على القرطاس . ولما كنا مُضطرين الى التفكير في هذا الختام ، وجب علينا ان نجعله دائما نصب اعيننا، وبذلك نستطيع ان نعطي الموضوع اسلوبه الخاص، اي اسلوبه المنطقيّ ، وان نجعل حوادث الموضوع، ولا سيما اسلوبه العمومي ، تتجه جميعاً نحو تلك الغاية .

واظنّ ان هنالك خطأً اساسياً في الطريقة المستعملة عمومـاً لتأليف القصة . فتارة توحي الينا القصة قضيةً تفتقر الى اثبات ، وتارةً يجد الكاتب نفسه ملهماً بحادث معاصر ، فيحاول ، بعد ان يضع الاشياء على هواه ، ان يرتّب حوادث مدهشة تمكنه فقط من تأليف اساس القصة ، وهو يستعين لذلك بادخال الوصف، والحوار ، او بشرحه الشخصي حيث يغتنم الفرصة لاملاء الثغرة التي تُرى في سياق الموضوع .

وعندي ان العبرة هي في التأثير الواجب احداثه في النفس .

فأتساءل قبل كل شيء، وبعد ان اضع الابتكار نصب عينيّ: ما هو التأثير الوحيد الذي ينبغي ان اختاره في تلك القصة من بين التأثيرات المتعددة التي يسهل على القلب والعقل قبولها؟ وبعد ان اختار موضوع القصة، والوسيلة لاحداث التأثير المذكور، ابحث عما اذا كنت انوي وضعها بالحوادث او بالاسلوب، او بحوادث بسيطة واسلوب خاص، او بحوادث نادرة واسلوب عـادي او بغرابة متعادلة في الاسلوب والحوادث. وبعدئذ افتش حولي، او بالاحرى في نفسي، عن طريقـة لترتيب الحوادث، وعن الاساليب الخاصة لاحداث التأثير المنشود.

وكثيراً ما قلت في نفسي: كم هو لذيذ وممتع هـذا المقال الذي كتبه ذلك الكاتب، اذ استطاع ان يقصّ، خطوة خطوة، السير المنتظم الذي اتبعه ليصل الى الغاية الاخيرة من انجازه! لماذا لم تظهر طريقة تأليفه امام اعين القراء؟ ذلك مـا يصعب عليّ شرحه. ولكن يجوز ان يكون زهو الكتاب، ازاء هذا الخلل الادبي، اعظم من اي سبب آخر. وهنالك رهط من المؤلفين والشعراء يؤثرون ان يقال عنهم انهم يؤلفون بواسطـة نوع من الهوس الشديد والنظر الدقيق. وقد تأخذهم الرجفة في الواقـع اذا اقتضاهم الامر ان يسمحوا للقراء بالقاء نظرة الى ما وراء الستار ليشاهدوا أجنّة المعاني الشاقة والمترددة، والرؤية الثابتة المتخذة في آخر لحظة، والافكار التي طالما ظهرت في مثل لمـع البرق وامتنعت عن ان ترى في النور الساطع، ويعاينوا الفكرة اليائسة او المطروحة يأساً كأنها صادرة عن سليقة حرون، والاختيـار الحكيم والرفض، والحذف المؤلم والتذييل، وبكلمة، ليشاهدوا الوسائل والصعوبات، والبراعة في تغيير الزخرف، والسـلالم والاغاويّ - ريش الديك، والخضاب، وكل وسائل التنكر التي هي من ميزة وسليقة «البهلوان» الادبي.

الغراب

●

في ذات يوم، عند منتصف الليل البهيم، بينما كنت اتأمل، خائراً وتعباً، في كتاب ثمين وطريف لمذهب منسي، بينما كنت اكدّ الذهن، وانا على وشك الرقاد، حدث فجأة نقر خفيف، كأن احداً يقرع بلطف، يقرع باب غرفتي. فهمست: «هذا احد الزائرين يقرع باب غرفتي، ليست الا ذلك، وليس شيئاً آخر».

آه! تذكرت جلياً ان ذلك كان في شهر كانون الاول القارس، وكانت كل جذوة توشي بدورها السقف بنورها المنعكس الفاني فتمنيت بحرارة مجيء الصباح، وعبثاً بذلت جهدي بان استخرج من كتبي حداً لحزني، حزني على فقيدتي ليونور، على الفتاة الغالية والنضيرة التي تدعوها الملائكة ليونور، - والتي سوف لا تسمى هنا ابداً سرمداً.

وكان حفيف الاستار الارجوانية، ذلـك الحفيف الناعم، الشجي والمبهم، يدخل الى نفسي ويملأني رعباً خيالياً، لم اشعر به حتى ذاك اليوم، بحيث جعلني اخيراً انهض لاسكن خفقان قلبي، مكرراً: «هذا احد الزائرين يرغب في الدخول الى غرفتي، - ذلك هو بعينه، وليس شيئاً آخر».

عندئذ شعرت نفسي بانها اقوى من ذي قبل. وبدون ان اتردد اذن طويلاً، قلت: «يا سيدي، او يا سيدتي، انني حقاً التمس منكما المعذرة، ولكن الواقع انني كنت ارقد وأتيتما تقرعان بلطف زائد، اتيتما ببطء شديد تقرعان باب غرفتي، ولم يتأكد لي اني سمعتكما». حينئذ فتحت الباب على مصراعيه، - هي الظلمات، وليس شيئاً آخر!

وبعد ان بحثت ملياً في تلك الظلمات، مكثت طويلاً وقد اخذني العجب والخوف والشك، حالماً احلاماً لم يجسر احد من البشر ان يحلمها البتة، ولكن لم يعكر الصمت شيء، ولم تبد السكينة ايه حركة، وكانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها اسماً همس همساً، وهو: «ليونور!» كنت انا قد همسته، وقد ردد الصدى بدوره هذه الكلمة: «ليونور!» ذلك هو بالتمام، وليس شيئاً آخر.

فدخلت الى غرفتي، وشعرت في داخلي بان نفسي كلها قد اشتعلت، وبعد هنيهة سمعت نقراً اقوى قليلاً من الاول، فقلت: «بدون شك ولا ريب، ان هنـالك شيئاً وراء قفص نافذتي، فلانظر اذن ماذا عسى ان يكون، ولأبحث عن هذا السر فلأدع قلبي يهدأ قليلاً ولأبحث عن هذا السر، - تلك هي الريح، وليس شيئاً آخر.».

حينئذ دفعت مصراعي النـافذة. فدخل، بحفيف اجنحة مضطربة، غراب وقور الهيئة، قديم الايام. لم يظهر اي احترام، لم يقف ولم ينتظر دقيقة واحدة، ولكنه حط بهيئة سيد «لورد» او سيدة «ليدي»، فوق باب غرفتي، حط على تمثال نصفي للالآهة «بلاّس» فوق باب غرفتي تماماً، - حط واستقر، ولم يفعل شيئاً آخر.

عندئذ حمل هذا الطائر الابنوسي اللون ، بوقار هيئته وجفاء منظره ، خيالي الكئيب ، على الضحك ، فقلت له : « وان يكن رأسك بدون قنبرة ولا زينة ، فلست حقاً جباناً ، ايها الغراب الحزين والقديم ، يا ايها المسافر الذاهب عن شواطىء الليل . قل لي : ما اسمك المعظم على شواطىء الليل البليطوني ! ؟ فأجاب الغراب : « ابداً سرمداً ! » .

فعجبت كيف ان هذا الطائر القبيح المنظر يفهم الكلام بسهولة تامة ، وان لم يكن لجوابه كبير معنى ولم يقدم لي كبير مساعدة ، اذ يجب ان نعترف بانه لم يقدر قط لرجل حي ان يرى طائراً فوق باب غرفته ، طائراً او حيواناً على تمثال نصفي منحوت فوق باب غرفته ، يدعى باسم مثل : ابداً سرمداً ! .

ولكن الغراب ، وقد جثم منفرداً على التمثال الساكن . لم ينطق الا بهذه الكلمة الوحيدة ، كأنه قد سكب في هذه الكلمة الوحيدة روحه كلها . لم ينطق بشيء آخر ، ولم يحرك ريشة واحدة ، — الى ان اخذت اهمس بهدوء : « بعض اصدقائي قد طاروا من قبل بعيداً عني ، وهو ايضاً سيهجرني ، عند الصباح ، مثل آمالي القديمة الطائرة . » حينئذ قال الغراب : « ابداً سرمداً ! »

فاضطرب لوقع هذا الجواب الملقى في حينه ، وقلت : « بلا شك ان ما ينطق به هو كل بضاعته في المعرفة التي اتخذها عن احد الاساتذة التعساء وقد لازمه الشقاء القاسي بلا تريث ولا هوادة ، حتى صارت اغانيه ذات دور واحد ، وحتى ان « من الاعماق » ، اعماق امله ، قد التزمت هذا الدور المحزن : « ابداً ! ابداً سرمداً ! » .

ولكن الغراب حمل ايضاً نفسي الحزينة على الضحك . فدفعت في الحال كرسياً ذا مساند في وجه الطائر والتمثال والباب وغرقت اذ ذاك في فراشي المخملي ، واجتهدت بان اسلسل الافكار بالافكار ، باحثاً عما يريد هذا الطائر العرّاف القديم الايام ، عما يريد هذا الطائر الكئيب ، البشع ، المشؤوم ، الهزيل والعرّاف القديم الايام ، ان يعني ، وهو ينعب ، بقوله : ابداً سرمداً ! .

ولبثت هكذا ، حالماً ، واهماً ، ولكن بدون ان اوجه قط مقطعاً واحداً الى الطائر الذي بدأت عيناه الوهاجتان تحرقاني حتى اعماق قلبي : فاخذت ابحث عن فهم ذلك ، وغير ذلك ايضاً . وكان رأسي ملقى براحة على مخمل المسند الذي كان يداعبه ضوء القنديل ، هذا المخمل البنفسجي اللون الذي كان يداعبه ضوء القنديل ، والذي لم يعد رأسها ، رأس ليونور ، يتكأ عليه قط ، — آه ! ابداً سرمداً ! .

حينئذ ، خيّل اليّ ان الهواء اخذ يتكاثف ، معطراً بمبخرة خفية كان يحركها الساروفيم الذين كانت اقدامهم تمس بساط الغرفة . فهتفت : « ايها الشقي ! ان ربك قد منحك بواسطة ملائكته ، اوجد لك الراحة مع شراب سحري لكآبتك في ذكرياتك لفقيدتك ليونور ! إشرب آه اشرب ! من هذا الشراب النافع ، وانس تلك المفقودة ليونور ! » فاجاب الغراب : « ابداً سرمداً ! » .

قلت : « ايها النبي ! يا رسول الشقاء ! يا ايها الطائر او يا ايها الشيطان ، ولأدعك دائماً ايها النبي ! سواء كنت مرسلاً من قبل الشيطان او قد قذفت بك العاصفة فقط ، وانت لا تزال شجاعاً ، على هذه الارض المقفرة ، المسحورة ، ورمت بك الى هذه الدار التي بها يقطن شبح الخوف ، — اتوسل اليك بان تقول لي بصراحة ، أيوجد ، أيوجد هنا بلسم مسكن من اليهودية ! قل ، اتوسل اليك بأن تقول ! » فاجاب الغراب . « ابداً سرمداً ! » .

قلت : ايها النبي ! يا رسول الشقاء ! يا ايها الطائر او يا ايها الشيطان ! ولا دعك دائماً ايها النبي ! بحق هذه السماء الممتدة فوق رؤوسنا ، وباسم هذا الاله الذي يعبده كل منا ، قل لهذه النفس المثقلة بالالم اذا كانت تستطيع ان تعانق في الفردوس البعيد فتاة طاهرة تدعوها الملائكة ليونور ، ان تعانق فتاة غالية ونضرة تدعوها الملائكة ليونور . » فاجاب الغراب : « ابداً سرمداً ! »

فهتفت قائماً : « لتكن هذه الكلمة علامة لافتراقنا ، يا ايها الطائر او يا ايها الشيطان ! — عد وادخل العاصفة ، وارجع الى شاطىء الليل البليطوني ، لا تترك هنا ريشة واحدة سوداء تذكاراً للاكذوبة التي نطقت بها نفسك ، دع وحدتي مصونة ، اهجر هذا التمثال الذي فوق بابي ، إنزع منسرك من قلبي ، واطرح خيالك بعيداً عن بابي ! » فاجاب الغراب : « ابداً سرمداً ! » .

وظل الغراب ساكناً ومقيماً دائماً ، مقيماً دائماً على التمثال الشاحب للاله « بلاس » ، فوق باب غرفتي تماماً ، وكانت عيناه شبيهتين جداً لعيني شيطان حالم ، وكان ضوء القنديل ، وهو ينساب عليه ، يلقي ظله على السقف ، ولم تعد نفسي تستطيع ، خارج دائرة هذا الظل الذي اخذ يتلاشى طافياً على السقف ، ان ترتفع الى العلاء ابداً ، — ابداً سرمداً ! .

فؤاد عازار

الى جماعة علم النفس التكاملي بالقاهرة

بقلم محمد مجذوب

مدرس الادب والعربية في تجهيز طرطوس بسوريا

☆

سيدي الاستاذ صاحب « الاديب » الأعز

تحية العروبة . وبعد فقد قرأت في عدد تشرين الثاني من الاديب العزيز « استيضاحاً موجهاً الى الشعراء » من جماعه علم النفس بالقاهرة * فوجدت فيه موضوعاً طريفاً عميقاً يتطلب العناية والاهتمام ، ورأيتني مدفوعاً الى الاجابة على اسئلة بدافع من التقدير لهذا النوع من البحث . وقد أزمعت ارسال الأجوبة مباشرة الى اصحاب الاسئلة غير انني فكرت مرة اخرى بقيمة مثل هذا الموضوع فآثرت ان ينشر بحثه في الاديب نفسها ولهذا تروني اقدم اليكم هذه الأجوبة لتتكرموا باثباتها اذا امكن في عدد قريب من الاديب .

وفي اعتقادي انكم ستوافقون على نشر مثل هذا البحث فتشجعون الذين سيجيبون عن تلك الاسئلة بنشرها على الملأ قبل ارسالها الى الجماعة او مع ارسالها الى الجماعة ليكون من ذلك فرصة لاثارة التفكير في ناحية جديدة ما أحسبها بحثت قبل اليوم .

وقد أرفقت هذه الاجوبة بقصيدة « تأوهات » التي اعتمدتها في البحث كآخر انتاج شعري لي، وفق الاسئلة المثبتة في الاستيضاح، ولي وطيد الامل بأنكم ستتفضلون بنشر القصيدة مع الأجوبة في عدد واحد ليكون اجتماعها معاً مدعاة لتفكير جدي في هذه الناحية .

محمد مجذوب

* انظر صفحة ٤٧ من هذا العدد .

اجوبة على الاسئلة الموجهة الى الشعراء

الى آخر قصيدة لي هي « تأوهات » نظمتها قبل بضعة ايام وموضوعها كما يدل عنوانها وجداني صرف قصدت به الى التعبير عن اهم الخطرات التي تستغرق نفسي في حياة مشحونة بالكبرياء والالم والحرمان . وهي خطرات قديمة احسها كل يوم وتكاد تغلب على كل ما انظم من الشعر منذ اكثر من خمسة عشر عاماً . فهي اذن لم تنبثق بصورة مفاجئة وقت التأليف بل تمخضت بها النفس طويلاً فكانت مضغة ثم علقة ثم جنيناً حتى اذا جاء ميقات وضعها كانت مخلوقاً سوياً .

وأريد بهذا التعبير ان موضوع القصيدة لم يأت ارتجالاً وانما عاش قبل التأليف حياة متطورة منفعلة بمختلف المؤثرات النفسية التي تتصل به من قريب او بعيد ، ولا شك في ان بدء هذه الخطرات لم يكن مساوياً لشكلها الأخير بل كان للحوادث والانفعال بها أثره الكبير في انضاجها والصيرورة بها الى هذه النهاية .

***

أحسبني أجبت على بعض هذا السؤال في ما تقدم ، ولزيادة الايضاح اقول : ان عملية التطور والتغير في حياة هذا الوليد كانت خارجة عن متناول ارادتي تماماً ، وكل ما اذكره هو انني كنت اشعر بوجود هذا الجنين يمضي في تكونه طي النفس ويزداد شعوري به كلما صدمني من وقائع الحياة ما يبعث على التأثر وان كنت لا اذكر انني توقعت او صممت اثناء ذلك على ضرورة ان اضع هذا المولود بعينه يوماً ما كما اتوقع انك تحس ذلك في قصيدتي المنوه بها :

تأوهات

☆

أوّاه من نفسي ومن دهري ... تعاونا ظلماً على قهري
تأبى عليّ النفسُ إلا الذرى ... والدهر يأبى لي سوى الغور
حرب أقاسي من تباريحها ... ما لا يطيق حمله ظهري
فليتني لم أوتَ ذاك الهوى ... ولم يفض قلبيَ بالشعر
وليتني كنت كبعض الورى ... خلواً من الاحساس والفكر
رضوا بأدنى العيش واستسلموا ... من حظهم للتافه المزري
وآثروا منحدرات الثرى ... على اقتحام المرتقى الوعر
مُناهُمُ أن يُغرقوا وعيهم ... في غمرات الاثم والوزر
ويبذلوا للعبث أعمارهم ... حتى يوافوا أرذل العمر
وبعض ما بي من كبار المنى ... يعيى به عزمي، على الوفر
جاش بها القلب فلم تثنه ... عنها يد الاعسار والفقر

***

يلومني على الأسى ماجن ... ضاق به رغم النهى صدري
ولو درى بعض الذي في الحشا ... لكفه عن عَذَلٍ، عذري
وكيف للناس، على جهلهم، ... أن يدركوا المبهم من سري
والحر لا يفهم أشجانه ... في الأرض غير الملهم الحر
ويل كبير النفس من عبثها ... وويله من صغر الدهر!

محمد مجذوب

هناك أحوال – لاعادات ثابتة – ترافق عملية التأليف، فلا بد من جو خاص يساعد على الاستغراق في روح الموضوع كالعزلة – ولا اعني بها الانقطاع عن رؤية الناس بل الانقطاع عن مشاركتهم حياتهم فقط – وقلما استطيع الاعتزال للنظم في حجرة خاصة بل انا اقوم بذلك في المقهى وعلى المائدة وفي السيارة، وقلما يشغلني عن ذلك ضجيج الناس وحركتهم بشرط ألاّ اضطر لمشاركتهم في هذا، لان أقل شيء من المشاركة يقتضي اعمال الوعي وهذا بطبيعته يصرف النفس عن التصور واستحضار التعابير الملائمة لاخراجه.

وعلى ذكر التصور والتعابير أود ان الفت نظركم الى شيء هام أغفلتموه في غضون الاسئلة. ذلك ان هناك فرقاً بين كلا العنصرين: الصورة الشعرية والعبارة الكلامية التي تعرضها، فالشعر كما أحسه، صورة نفسية من المجردات تتكون، كما اسلفت، من مختلف الانفعالات بالحوادث الخارجية فتؤدي الى حصول «حالة» لا أدري ماذا يجب ان اسميها – فكرة. خيال. نشوة. غمرة. موجة! – وأري تسميتها «موجة» أقرب تعريف لهذه الحالة، فهي موجة تتحرك في اعماق النفس ثم تتقاص ثم تتحرك حتى اذا حان اظهارها الى خارج كانت في حالة امتداد تام يستغرق سائر القوى الغامضة في صميم الشاعر، وهي حتى في اثناء ذلك تظل «شيئاً مبهماً» لاصلة له باللفظ وانما هي «محاولة» يقوم بها الشاعر لاختيار الوسائل اللغوية الصالحة للاشارة الى هذا الشيء المبهم – اشارة فحسب –. ولكنه مع ذلك لا يجد لديه الحرية الكافية في هذا الاختيار فقد يستهويه من الكلمة النغم او الحروف او الانسجام مع الكلمات الاخرى فينساق الى استخدامها، ويلوح لي ان لهذه المحاولات اللفظية صلة ما بروح الموجة كالصلة التي بين الصورة والمرآة اذ كلما كانت المرآة اكثر صفاء وانتظاماً كانت الصورة اشد بروزاً ودلالة عليها.

وهكذا القول في بحر القصيدة وقافيتها فقد أصبحت مقتنعاً بأن اختيارها انما يرجع الى عمل الموجة نفسها اكثر مما يرجع الى ارادة الشاعر وأقول «اكثر» لان الشاعر قد يستطيع احياناً التدخل لاحداث بعض التوجيه في هذه الناحية.

اما القلم والحبر فلعل لهما علاقة ما في عملية التأليف ولكنها علاقة محدودة بالنسبة اليّ، فأنا افضل ان استبقي المنظوم في ذاكرتي حتى يبلغ حداً اخاف معه النسيان فأكتبه كيفما اتفق، على انني افضل ان تكون الكتابة بالحبر وبقلم مرن لا يحرن – اذ كثيراً ما يهيجني حران او جفاف الحبر – كما انني افضل ان يتاح لي الخلو للنظم في مكان نظيف انيق مشرق على بعض مشاهد الطبيعة وخاصة البحر في مختلف حالاته.

***

مما تقدم يتبين لكم شدة الصلة بين شعري ووقائع حياتي فليس شعري في ذاته الا تعبيراً عن هذه الوقائع دون تصرف – على الغالب – اما مأتى هذه الصور والاحداث فأعرف بعضه واجهل بعض، وكل ما اعرفه من ذلك هو ان ثمة حوادث تترك اثرها في نفسي بحالة استعدادها للتلقي فتختزن النفس هذه الآثار وتمضي هذه في تفاعلها كلما وجدت مناسبة لذلك، ولهذا كثيراً ما اراني مدفوعاً الى النظم لتصوير حالات لا وجود لها في الحاضر، ولكنها موجودة في النفس ومختمرة هناك من قبل، وهذا لا يمنع حدوث حالات استثنائية يكون بها التلقي والنظم معاً، ولكنها في الغالب لا تستطيع التملص من آثار الرصيد المخزون.

***

لا اذكر انني قدرت نهاية بعينها لقصيدة ما قبل الوصول الى تلك النهاية، بل على العكس كثيراً ما احسب الموضوع العارض للنظر محدوداً لا يتجاوز بضعة الابيات فما أكاد امضي فيه حتى اراه يتسع ويتسع وانا ماض وراءه باضطرار استكمالاً لأمر لا بد منه.

اما كيف أعرف النهاية للقصيدة فذلك من عمل الموجة نفسها ايضاً فهي من هذا القبيل كموجة اليم تماماً تتقدم في طريقها باستمرار فتمر خلال ذلك باطوارها المختلفة حتى تبلغ الشاطئ فتنكسر على اقدامه، وكما ان الموجة تتنوع اجزاؤها اثناء مرورها على سطح الماء بدافع التيار كذلك موجة النفس الشاعرة تندفع بقوة تيارها الباعث فتتتابع صورها المختلفة حتى تنتهي الى قرارها الاخير الذي يؤلف النهاية. وعبثاً يريد الشاعر ان يتجل نهاية لموجته الا اذا شاء ان يحمل من وليده مسيخاً ناقصاً تدرك تشويهه العين النفاذة من اول نظرة.

وبعد فهذه ملاحظات جهدت ان اعرض فيها خلاصة ادراكاتي الشخصية لهذه الشؤون المسؤول عنها، وقد تتفق مع ادراكات الآخرين من الشعراء او تخالفها، ولكنها على كل حال شؤون صحيحة بالنسبة الى نفسي كما علمت ولعلها مؤدية بعض ما ترجون من الفائدة في هذا الموضوع العميق الدقيق.

طرطوس – سوريا

محمد مجذوب

التركيب النفسي

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي

مدرس علم النفس التجريبي بجامعة فؤاد الاول

☆

مهدت لنا العلوم الطبيعية طرائق العمل والتغلب على الصعوبات المادية التي كانت تحد من نشاطنا، وكذلك فيما يختص بالناحية النفسية فان اطلاعنا على الاسرار النفسية العامة المشتركة بين مختلف افراد الانسان مدنا بمقدرة كبرى على التكيف، والانسان اذا عرف نفسه تنبأ بافعاله وسلوكه في ظروف حياته المختلفة. وعلم النفس يوقفنا من بعد على مشكلة هامة في الحياة تتلخص في كلمة « تركيب » وتقوم حالة التركيب على المقاومة والمسايرة..

يصل الانسان الى التركيب النفسي ان استطاع ان يتصور الموقف بكل ما يحتاج اليه من مقاومة ومسايرة. فهناك صعوبات يجب ايجاد الوسائل لقهرها وابعادها، وهناك اتجاهات يجب اتباعها واغتنام الفرصة للوصول بها الى الهدف المطلوب.

ويشعر كل منا بحالة ازدواج بينه وبين « نفسه » فتارة يهون لها وتارة يعنف عليها وكثيراً ما نشعر بعراك عنيف بين قوتين تصطرعان لتخضع احداهما الاخرى ومن قديم ذهب الصوفية يحللون هذه الظاهرة ويقولون بوجوب المقاومة ليتغلب الشخص على كل ميل الى الراحة الجسمية ويظفر بالسعادة الروحية الخالدة. وتقوم هذه الفكرة على ما دعت اليه الاديان من الابتعاد عن الفردية اذ صرحت بأن « النفس امارة بالسوء ».

وقال قوم ان اسم الشيطان ليس شيئاً آخر غير رمز لميول النفس الخاصة التي ترمى الى رغبات فردية لا تتلاءم مع الواجبات الاجتماعية العامة. فأعطت الاديان لهذه الميول النفسية الفردية شخصية مستقلة لها اسم معين. وقد قسم العلم الحديث القوى المعنوية لدى الانسان الى الأنا Ego وما فوق الأنا Super-Ego الذي يشمل كل الرغبات والواجبات الاجتماعية وسماه برجسن Bergson الأنا الاجتماعي Le moi-social وميز قوم بين الذات المسيرة Le moi والأنا المسير Le je.

وذهبت المدارس المختلفة تحدد وتميز بين القوى النفسية وتتنازع تنازع الاصطلاحات فقط وان كانت ترمي كلها الى قصد واحد. هناك اتجاهات مختلفة للشخص حسب حالته الجسمية وحسب التأثيرات الاجتماعية والطبيعية. ويمكننا ان نميز بين نوعين من الاتجاهات نوع يرمى الى تحقيق رغبات حالية في الحاضر، ونوع يحاول ان يضمن سعادة المستقبل. فبعض الاشخاص تسيطر عليهم الرغبات الحالية ويعيشون للحظة الحاضرة بينما نجد آخرين يقيمون وزناً كبيراً للمستقبل فيقاومون كل الميول الحالية خوفاً من ان تجملهم يبذلون كل قواهم فيتعرضون لعجز في يوم من الايام، ويتطلب هذا الاحتياط مقاومة هي اساس الارادة.

يقوم التركيب النفسي — الذي يتجلى في صورة الشعور بالثقة والاطمئنان على سياسة النفس وحسن سلوكها ازاء الميول الحالية في الحاضر — استعداداً للتغلب على مشاكل المستقبل. يبذل الشخص مجهوداً لينال لذة او ليدفع ضرراً، ويفضل دائماً ان يبذل هذا المجهود في آخر وقت ممكن مدفوعاً برغبة الاقتصاد في المجهود وتجد الشخص يتهرب دائماً من بذل المجهود فالطالب يقرأ لكتابة

موضوع انشاء ويهيء كل الوسائل اللازمة ولكنه عندمـا يصل الى آخر لحظة ويجد نفسه امـام الامر الواقع الذي يتطلب مجهوداً ذاتياً لكتابة موضوع جديد نراه يتقهقر ويبحث عن الاعذار التي تخول له تأجيل القيام بالواجب . ويغالط نفسه باسطاً لنفسه اسباباً مهمة مثل ضرورة الاطلاع على كتاب موجود عند صديق فيقوى التبرير وتتكاثر الحجج ويرجىء الطالب عمله راضياً في الظاهر ، ويشعر بلذة الراحة ويتفرغ للقيام بأعمال يدعوهـا الحال في وقته الحاضر .

وهكذا يتبين لنا ان النفس قد تصل الى تحويل الاتجاه بسياسة خاصة وقد اطلقنا على هذه السياسة النفسية كلمة التبرير . ويقوم التبرير بدور مهم في توجيه السلوك . ونحتاج الى مهارة خاصة لنميز التبرير من الاتجاه الطبيعي للنفس . ويعتبر التبرير خداعاً يبعد المشكلة لا عن طريق المقاومة بل عن طريق المسايرة الآخذة صورة مقاومة .

وليس لنا معيار نقيس به صحة الاتجـاه النفسي غير الشعور بالتعب . فكل اتجاه نفسي جديد يرمي الى تركيب نفسي يتطلب بذل مجهود معين يصحبه نوع من الشعور بالتعب . ان الحيـاة الطبيعية تحليل وتركيب ويأتي الضعف والاضطراب عندما يسيطر التحليل على التركيب . تتحلل القوى وتنفك الوظائف وتتعطل المراكز عن عملها ، ويؤدي التحليل الى الانحلال .

وقد ينتهي الاسراف في المسايرة الى القضاء على كل القوى النفسية ولهذا السبب نجد الاشخاص العـاطلين عن العمل يصابون بأخطر الآلام النفسية . وملاحظة الامراض النفسية النـاشئة من اسراف الشخص في المسايرة والابتعاد الكلي عن المقاومة اعطتنا فكرة واضحة عن حقيقة التركيب النفسي — لقد أشار علمـاء النفس الى الناحية الفعالة في النفس وقالوا بالآلية الفعالة للنفس (Psychodynamic Mechanisms)* .

عندما يصادف الشخص مشكلة ويفر منها معرضاً بذلك نفسه للكبت والاخفاء فإنه حسب فلسفة فرويد يبقى أثر في الذاكرة سماه ما تحت الشعور ويترك ذلك الاثر تغيراً في الشخصية يظهر في وقت ما من تاريخ الشخص . وتعمل هذه الآثار عملها في السلوك ويضطرب التفكير والعاطفة وتظهر الميول الشـاذة او القلق والاندفاعـات الهسترية . ويقتضي فهم فرويد للتركيب ان نرجع الى هذه الآثار نبحث عنها في اعماق اللاشعور بالحديث الحر .

ولكن الآلية الفعالة ليست هي الا مظهراً من مظاهر النشاط النفسي وهو صورة للتركيب النفسي .

وبالرغم من ان فرويد كان طبيباً جسمياً في الاصل فانه حاول ان يبعد كل مظاهر النشاط النفسي عن الجسم وقال بمنهج غريب في العلاج النفسي وهو الاقتصار على الارتداد لأصل الاضطراب وارجاعه الى ذاكرة المريض . واستغرب كيف ساير فرويد علماء واطباء وقالوا معه بفائدة الطرق الغريبة في العلاج النفسي واغرب ما قيل في هذا العصر تأويل الاحلام والربط بين الرموز والحقائق واغرب من ذلك كله هو حصر اسباب الانحلال النفسي في الظواهر الجنسية . مع ان هذه الظواهر ليست الا جزءاً من النشاط الحيواني وهي مشتركة بين الانسان وسائر الحيوانات وكثير من الاعراض الهسترية الجسمية مثل الاسهال والامساك وسرعة ضربات القلب التي ارجعها فرويد الى مجرد الكبت لم تظهر في الحيوانات المعزولة عن الجنس الآخر والتي لم تتح لها فرصة القيـام بالفعل الجنسي . وكذلك استطـاع قوم ان يعيشوا بصحة جيدة ممتنعين عن الفعل الجنسي لأسباب دينية .

على اني اعتقد بأن فرويد بسط كثيراً من الحقـائق النفسية الجسمية الاجتماعية المعقدة التي أصبح فهمها متعسراً على غير اساس التركيب النفسي .

هناك انواع من الوظائف الجسمية تنتج قوة عضلية ونشاطاً جسمياً ، وهذا النشـاط الجسمي المشترك بين مختلف الحيوانات يتفاوت في التوجيه حسب مستوى الحيوان في سلم الرقي النوعي .

يتوقف توجيه النشاط الجسمي على درجة التركيب الجسمي ، ويختلف سلوك الحيوانات حسب تكاملها التشريحي وترابطهـا البيولوجي وتآزرها الفسيولوجي . انك تجد الحيوانات تقوم بنفس الفعل وترمي لنفس الغاية ولكن بدرجات تختلف في الدقة والضبط . ولعل ارقى وظيفة تتسابق اليها الانواع الحيوانية هي مراقبة الافعال ويمكننا ان نعتبر الفعل الارادي في قمة الوظائف العالية التي تتطلب تكاملاً نفسياً تاماً وتركيباً قوياً .

واحسن طريقة اذن للوقوف على التركيب النفسي هي دراسة الفعل الارادي لانه يعطينا الترابط بين الجسم والنفس والبيئة . قد يكون الشخص مضطرباً او مريضاً فتكون الافعال شاذة . ويمكننا ان نستند الى هذه النظرية لنعرف حـالة النشاط النفسي لدى

(*) Personality and the Behavior disorders J. Mev. Hunt editor P 261 - 264.

الشخص ، ونستعمل لذلك جهاز «الديناموجراف» اي الجهاز الذي يقيس النشاط وهو عبارة عن شكل بيضوي يمكن للشخص ان يضغط عليه ليحرك عقرباً تشير الى مقدرة الشخص على الضغط بالكيلوجرام .

نطلب من الشخص ان يضغط بكل قواه بيده على «ا» و«ب» من الجهاز فيشير العقرب الى رقم ٥١، ونعيد هذه العملية مرات لنقف على التغير في قوة الضغط ونحصل على منحنى في شكل معين .

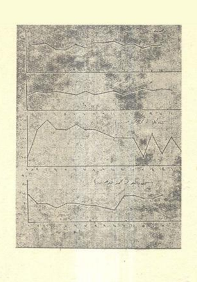
فالمهم هو طريقة الانخفاض والارتفاع في المنحنى فانه ان كان اي التفاوت بين كل رقم وآخر كبيراً يدل على وجود اضطراب في النشـاط النفسي وان كان المنحنى منسجماً والخطوط متقاربة يدلنـا على ان النشاط النفسي منسجم . ويبدو لأول وهلة ان التجربة خاطئة وليس لها علاقة بالنشاط النفسي اذ يقيس الجهاز قوة الضغط الجسمية . وهذا الاعتراض غير صحيح لاننا نجعل الشخص يكرر التجربة فاننا ندرس طريقة توزيع الشخص لقواه الجسمية وهي في صورة فعل ارادي محاولاً ان يصل الى غـاية معينة وهي الرقم الاعلى .

ولكي نطمئن الى ان القياس غير خـاضع لعوامل جسمية موضعية فاننا نجعل الشخص يقوم بعملية السحب باليدين لندخل عمل الكتفين ويمكن ايضاً جعل الشخص يسحب بكل جسمه ونقارن المنحنيات المختلفة فان كانت كلها منسجمة لا يبقى لدينا شك في انسجام النشاط النفسي وان كانت كلها متفـاوتة مضطربة نتيقن ايضاً باضطراب ، وفي حالة التساوي نلجأ الى جهاز « الارجوجراف » وهو الذي يسجل طرق التعب بدقة .

واقدم الآن نماذج لمنحنيات اخذت لشخص واحد ودل المنحنى الثالث على اضطراب وقتي ورجع التركيب النفسي الى التوازن في المنحنى الرابع . انظر الرسم .

فالتركيب النفسي يظهر في تكـامل النشاط النفسي اي في دقة الاتجـاه وحسن توزيع القوى الجسمية وسهولة التكيف مع الوسط الخارجي .

قد يضطرب التركيب النفسي لزيادة النشاط عن الحد المطلوب فيندفع الشخص الى اعمال لا تتفق مع البيئة . ولاحظ ب . جانيه ان اغلب طرق العلاج النفسي هي طرق الاقتصاد لارجاع التوازن



بين القوى النفسية ومحـاولة ابقاء كمية من النشاط النفسي او تنميته(*) .

ويقتضي التركيب النفسي تمرينات لاكتساب عادات جديدة مفيدة وطرد عادات سيئة قديمة . فكثيراً ما تنشأ العادات السيئة لملء فراغ كان يسيطر على الشخص من هذه العـادات بطريقة سلبية فلا بد من خلق اتجاهات جديدة تستهلك كمية من النشاط للحصول على فوائد تؤكد في الشخص الشعور بقيمته ويكون ذلك عن طريق التمرين واكتساب عادات جديدة تركب النفس تركيباً جديداً . وهذه هي الغاية البعيدة لعلم النفس وهي مقدرته على احداث تغيير في وضع من الاوضـاع النفسية من ناحية السلوك والحالات الشعورية .

هل يستطيع علم النفس ان يزيد في نشـاط شخص ويقوي انتباهه ويزيد في سرعة الاستجـابة الفكرية والحركية ويجعل الشخص ينتقل بسهولة من حالة خوف الى حالة اطمئنان ومن حالة حزن الى حالة فرح ؟ .

فذلك ما نحاول الاجابة عنه في مناسبات قادمة .

ابو مدين الشافعي
بيت المغرب ـ القاهرة

(*) P. Janet: La médecine psychologique. Paris Flammarion 1924. P. 180

سطور

عن الشاعر شللي

ترجمة مرتضى شرارة

بغداد

عندما يتحطم المصباح ،
يستلقي الضوء في التراب ميتاً
عندما تتبدد الغمامة ،
ينتثر جمال قوس قزح وبهاؤه .
أعندما يتكسر العود ،
لا احد يذكر نغماته العذبة .
وعندما تتكلم الشفاه
يطوي النسيان نبراتها المحبوبة في الحال .

الموسيقى والجمال . . لا يظل احدهما بعد فناء الآخر
كذلك العود والمصباح .
وعندما تخرس الروح ،
ترتد أصداء القلب ،
وتغنى الأغنيات . .
ولا تبقى غير نغمات حزينة
كأنها الريح في كهف مهدم
او الصخب النائح . .
الذي يدوي في جرس جنازة ملاح :

عندما تمتزج القلوب
يهجر الحب – في أول الامر – العش الجميل
ويبقى الضعيف لوحده
كي يكابد ما كان أحرزه مرة
ايها الحب ! يا من يندب . ويرثي
وهن هذه الاشياء هاهنا
لمَ اخترت أوهنها . .
لمهدك وبيتك ونعشك ؟

ستؤرجحك آلامها وانفعالاتها
كما تؤرجح العواصف الغربان في أعالي الجو
وسيهزأ بك العقل النير
كما تهزأ الشمس بالسماء الممطرة
وستعفن كل خشبة في عشك
ويتركك بيتك الحصين عارياً للضاحكين
عندما تتساقط الاوراق . .
وتقبل الرياح الباردة .

حكاية كتاب

ركبت مطية الكهرباء في صباح ذات يوم قاصداً مقر عملي ، وتخيرت لنفسي مقعداً مريحاً في حجرة الدرجة الاولى واخذت أتصفح جرائد الصباح ألقي عليها نظرات عجلان لألمّ بجملة ما تنطوي عليه إلمامة عامة واقف على أهم الانباء التي حدثت في الليلة البارحة .

ولما وقف الترام في ذلك الحي الفرنجي الذي لا تجد فيه سوى عمائر شاهقة وقصور موزعة بين خضرة وماء ، ركبت المركبة مليحة صارخة الجمال ، تزيّت بالثمين من الزيّ ، وتحلّت بالأنيق من حلي الذهب ، ولم تصحب معها الا كتاباً دلت هيئته على أنه كتاب أعجمي ، وجلست في الركن المقابل لي وسرعان ما غرقت بين صفحات الرفيق الجليس تقرأ فيه بنهم وتقلّب أوراقه في عجلة وفي ولع .

فنحّيتُ الصحف جانباً وصرفت همي الى متابعة هذه الفتاة الفريدة ، فما تعوّدت قط — ولي عشر سنوات أركب فيها الترام صبيحة كل يوم — أن ارى فتاة على مثل هذا الجمال تهتم مثل هذا الاهتمام بالقراءة والمطالعة . وقلت في نفسي : لعلها نزوة طارئة لن تلبث حتى تزول ، أو لعل المليحة مشغوفة بروايات الحب والعشق وما تحمل بين يديها سوى رواية تفيض بتباريح الهوى وتزخر بصور الهيام والنجوى .

ولم أتنبه من استرسال فكري الا وقد بلغت مرادي ، فقد حط الترام أمام دار شغلي وتعيّن علي أن ابرحه اليها . فترجلت وأنا كارهٌ ساخط ومضيت الى عملي أؤديه في لهفة راجياً ان تكرّ ساعات النهار كراً ويقبل صباح اليوم التالي لعلي أمتع العينين بمشهد فتاة البارحة .

وخرجت في اليوم التالي أقصد مكان شغلي وسلكت طريق الأمس ، ولم أعمد الى تصفح صحف الصباح كعادتي وانما كنت معنياً بأمر واحد هو أن يهدر الترام سريعاً الى حيث يحط في ذلك الحي الفرنجي لأرى صديقة الكتاب واقرأ سفرها بنهم وشوق لا يقلان عن نهمها وشوقها بتلاوة محتويات كتابها . وكانت مطية الكهرباء على غير ما تعودت تسير وكأنها تتعمد الابطاء ، وكان الوقت بدوره يمضي متثاقلا وعقارب الساعة انتابهـا فالجٌ ، والطرق غدت مقفرة من السابلة . وبعد جهد جهيد وصل الترام الى المحطة المنتظرة وركبت الفتاة المركبة وجلست في ركنها المعهود وانصرفت الى كتابها تطالعه وهي في شغل عن كل شيء .

وكان همي في هذه المرة ان أعرف كنه الكتاب ، فقد عددته في عرفي كالضرة في عرف الزوجة ، وأضمرت للكتاب حقداً دفيناً لأنه استطاع أن يستأثر بهذه الغادة أو رضيت هي بأن تستأثر به ... ليتني كنت كتاباً يستلقي بين يدي الفاتنة في استسلام ، ويثير فيها مثل هذا الولع وهذا الاهتمام ... ليتني كنت سفراً لا تدعه الحسناء وحيداً وانما تصحبه معها أينما حلّت وأينما قادتها قدماها .

وكنت كل يوم أقابل الفتاة في الترام ، ومعها ذلك الكتاب العتيد الذي استطعت ان اقرأ عنوانه من على بُعد وأعرف اسم مؤلفه . وكنت كلما رأيتها فرغت من تلاوته عادت من جديد الى صفحاته الاولى تستعيد قراءته وتستمتع بصاحبته ودفعني الفضول الى اقتناء هذا الكتاب فقصدت مكتبة كنت أعاملها ايام الدرس وانصرفت عنها حيناً ، وطلبت نسخة من هـذا المؤلف ومضيت في الدار أسهر على قراءته حتى اتيت عليه في ليلة كاملة لم يغمض فيهـا جفناي ، ولكني لم اجد في الكتاب ما يحمل على الفتنة به والاعجاب بمضمونه • وعجبت كيف تضيّع هذه الفتاة وقتهـا وكيف تجهد بصرها في قراءة مثل هذا الكتاب التافه .

وبغتة ، اختفت الفتاة ، فلم اعد اراه في طريقي : اين ذهبت ؟ ماذا حل بها ؟ اتزوجت ؟ أعدا عليها الدهر ؟ أمرضت ؟ هل انتقلت من الحي ؟ جميع تلك الاسئلة لم اقف لها حتى اليوم على جواب .

ولكني وجدت نفسي منساقاً الى اصطحاب هذا الكتاب معي في غدوي ورواحي ، أركب الترام وهو تحت ابطي فلا اكاد استقر في مقعدي حـتى امضي في تلاوته .

واليوم مضت علي ثلاث سنين لم اقرأ فيها سوى هذا الكتاب ، قرأته اكثر من خمسين مرة وفي كل مرة أجد فيه جديداً انه كتاب ابلى الهيام به جدّته وفقد جمال منظره ، ولكنه مع ذلك يحتل مكان الصدارة في مكتبي .

القاهرة — وديع فلسطين

يا ليل

●

للدكتور نقولا فياض

☆

من ديوان رفيف الاقحوان
تحت الطبع

●

خفّف الوطء عليّاً
علّني افهم شيئاً
منك يا ليلُ
كلما اطلقت فكري
فيك يجري
كنت كالخابط في امواج بحر
تحت عمق
يتلوى مثل قيد حول عنقي
وبأذنيّ طنينْ
لا يبين
من هدير البشر
وصراع القدرِ .
كلما أنعمت فيك النظرا
لأرى ما لا يُرى
خلتُ اني بالغ تلك الحدود
والسدود
خلف غابات الظنون
فاذا بي حاسر الطرف كليل — دمك الاسود في عيني يسيل
حرقاً تحت الجفون .
انني اسمع همساً واخالْ
أن لليل شفاها
تملأ الظلمة آها
واحاديث طوال
اترى هذا صدى للقبل — تركته سكرات العاشقين
ام صلاة من قديم الأزل — لم تزل ترهف سمع العابدين
ام هو الوحي رسول الامل — وحبيب المنشدين
ام عتابْ
وحساب
في ضمير المجرمين
ام معاد ونشور
للقبور
تلتقي فيه العصور

بين شكوى وحنين

***

طلع البدر يشق الحجبا

معجبا

فالغيوم

كلحاف

قطنه مندوف

او قطيع من خراف

ابيض الصوف

والنجوم

في السماء

تخفض الطرف حياء

وعلى الارض بياض الكفن

وصلاة الزمن .

ما نجوم الليل الا مقل ترنو الينا

مقل الاموات ممن ذكرهم غال علينا

فاذا ما الشمس غابت والدجى غمر الارض امانا وحنانا

اقبلت من عالم الغيب علينا

تترانا

يا نجوم الليل من تلك الثقوب ارسلي النور الى قلبي الكئيب

واغمري بالوحي روحي علّها ترتوي من ظماء فيها غريب

وليكن يا ليل في صمتك لي صيحة تنفذ اعماق القلوب

عندما اروي احاديث بلادي

وبعادي

حاملا اوراق غاري

نحو دار غير داري

يعرف الناس بها قدر الاديب

***

وليكن يا ليل في صمتك لي صيحة تنفذ اعماق القلوب

بعث الشعر بها بين الملا ينشر الحب ويحيي الاملا

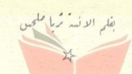
ويظل الليل ستار العيوب

نقولا فياض



الفنان والبحر

بقلم الآنسة ثريا ملحس



وقف الرسام * على صخرة ينظر الى البحر ، وقف يتأمل . .

فهبت رياح شرقية ، وساط البحر الصخرة ، علت اواذيه وتلاطمت شواطئه ، وفغر فاه يبتلع السفن التي تجري في عرض تلك البحار . . وفي كل مكـــان ، انتشرت اكفان بيضاء ، وتأزرت السماء بعبـــاءة سوداء ، حداداً على ضحايا العاصفة ! . كم من الارواح سحقت ! كم من السفن حطمت ! اصوات الناس الخافتة امام ذلك الجبار . . يا اصغر الانسان ويا لهـــا من مأساة ذلك الانسان الضعيف امام البحر الفتاك ! .

اين السفينة التي انتظرهـــا ؟ اين رست ؟ . . في الوادي بين جبلي مـــاء ، من السفينة المتوارية عن الانظـــار ، الى شاطىء البحر ، تمتد حبال الحياة وجراراتها وعليها كرسي يتأرجح متجهاً نحو اليابسة . وعلى الكرسي ملاح يحمل على ذراعيه الشديدتين فتاة مغشياً عليها ، وجهها ابيض ، وثوبها — المشبع بالمياه المالحة ، المهشم من ضربات البحر القوية — ملتصق بجسمهـــا الملتوي ، ويدها اليمنى تتدلى بارتخاء نحو الامواج ؛ واما وجه الملاح فغطى بمنديل ، المنديل الذي ساطته به العاصفة . . واما الرسام فما زال واقفاً على الصخرة ، ينتظر مشهداً آخر ، فكان ما تمناه . . .

بدا زنجي على مركب النجـــاة ، المركب الذي فقد شراعه ومجذافه ، يقذفه التيار في عرض البحر على غير هدى ، وقد احـــاط المركب كلاب البحر التي تنتظر طعامها بسغب شديد . . . من بعيد ، على خط الافق مرت سفينة تاجر ، وقد خلا ظهر السفينة حتى من ملاحيهـــا فكيف لذلك الزنجي المضنى ، اليائس من كل نجاة ان يشعر بذلك الرجاء الضئيل . . ولكن الرجاء يتلاشى . . . مـــا نهاية تلك القصة المميتة الصفراء ؟ انها مأساة ، لا يتمها الا كلاب البحر ! . . واما الرسام فمـــا زال واقفاً عـــلى الصخرة ينتظر مشهداً آخر ، لتسجله ريشته السحرية . . مأساتان . . بطلهما الانسان الضعيف والبحر الجبار ! .

ثم هدأ البحر ، وطفلت الشمس ، وانقشعت الغيوم . . فكان مساء ، ثم كان ليل . . مشهد رائع ، ملك ناصيته ذلك الرسام الشاعر ، الذي صور البحر في الليل ولم يعاوده بريشته في النهار ! شعر صاف ، نقي ، في ليلة من ليـــالي البحر ، والسماء مزدانة بمصابيح ذهبية رجراجة ، والبحر ساكن يختلج من النسيم الطيّب ، فيعلو على صدر البحر اخدود من الزبد الابيض ، ونور

* اذيع من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية .

القمر ينعكس على المياه لون الشرق : خلال هذا المشهد الرائـع ، بدا جرس سفينة وركن من ظهرها ، وحبلان ، ووجه ذو لحية ، ويد ملاح . . ساعات موحشة وتعب لطيف ! والملاح يصرخ : « كل شيء حسن . كل شيء حسن » ، ويده تتم ما اراد ان يقول ! ، وعلى رأس الملاح طاقية جلدية ، وشعر سنجابي ، وتقاطيع وجه جادة ، كأنه صنع من البرنز ، هذا هو المراقب الخالد : « ناموا يا رفاقي ! النجوم طـالعة ، والبحر هـادىء ، والسفينة سالمة » . . منظر يثير الرسام الشاعر ، والرسام الشاعر ما زال يتمتع بجمال البحر ، وما زال يسكب فيه حياة ليشاركه افراحه واتراحه . . ثم وقف ينتظر مشهداً آخر . .

ملاّحان آخران واقفـان على ظهر سفينة ، وعلى رأس كل منهما طاقية جلدية يحملان على كتفيهما معطفين ثقيلين ، واما الشخص الرئيسي في المشهد فهو ملاح واقف يقابل البحر ، وظهره يقابل المشاهدين ، وفي يده مرقب ، يوجهه الى الشمس كأنه يريد صيدها ! . وهناك عن يمينه مساعد يظهر للشـاهد منظر وجهه الجانبي وهو مكب على « الكرونوميتر » ، واما البحر فانه يخض ويعج بالزبد ، واما السماء فانها غضبى ، تحوم عليها قطع بالية من بخـار رمادي قاتم . . ومن هنا ومن هناك تنفرد السماء ، وتشق الغيوم شقين فتبدو قطع صغيرة زرقاء . واما الملاحان فانهما يسيران على نسق مطّرد كالمعتاد ، ولكن شيء سحري وخشوع قدسي مستمر يعتري الشاهد . . ذلك الاوقيانوس العاصي الذي فتح عنوة بذكاء الانسان ومثابرته ، والذي القى عليه الرسام الشاعر روحاً لينطق ويفكر هذا هو السر السحري الذي يصيب الشاهد عندما يلقي نظرة على ملاحم ذلك الرسام البحرية ، ومن يكون ذلك الساحر العبقري ؟ ؟ هو . . هو ونسلو هومر Winslow Homer الذي صحب البحر في جميع حالاته ، هو الذي وقف على تلك الصخرة فوجد شيئاً ظاهراً بينه وبين البحر او اخيراً بنى لنفسه كوخاً على صخور شاطىء . . . هناك عاش الرسام حتى فارق الحياة ، وظل صديق البحر المخلص ، حتى قلّده البحر الوفي لقباً خالداً ، الا وهو شاعر ملك البحار اوقيانوس ! ! .

لم يكن هومر متشائماً فقط ، بل كان شاعراً حساساً متفائلاً كمـا هو متشائم ، ساخطاً كما هو هادىء ، يحب الناس كما هو يمقت الناس . . . وعلى الصخور جلس هومر يسجل ضحكات البحر وابتساماته ، ثورته وغضبه ، صراخه وأنينه ، عـاش وحيداً ، لا يعرف قريباً الا البحر ، البحر الحبيب الذي طالما آنسه ، كان هذا الفنان يسجله العامر بالاساطير المختلفة ، كان حرباً وسلاماً ، كان لا يعرف الملل ، بل يجلس امام هومر الساعات الطوال . . صوره وصوره حتى خلق ملحمة البحر الخالدة . . امامه كل ما يريد ، وبينه وبين البحر شبه ظاهر .

اهتم هومر بالملاّحين كما اهتم بالبحر ، صور الملاحين الذين يحرثون الامواج سعياً وراء القوت ، صورهم في جميع حالاتهم . وهم يجرّون شبـاكهم ، وهم يرجعون بصيدهم ، وهم يرقصون مع فتيـاتهم على الشواطىء ، وهم يسحبون حبل المرسـاة باخلاص وايمان لينزلوا الى قواربهم في الليل الدامس ، وهم يقصون قصصهم ويروون احداث بطولتهم بسذاجة الطفل ، والامواج تقبل انوار القمر ، والبحر يشن عليهـم غاراته المرعبة . . . ثم يضمهم الى صدره الرحب بحنو وعطف . . هؤلاء الاطفـال أمام ذلك الجبار ! .

ذلك هو الرسام الشاعر « هومر » الذي أحب العزلة فابتعد عن الناس ، لا لانه يحتقرهم بل لانه يخاف مكرهم وازعاجهم وكان يصوّب بندقيته (الفارغة طبعاً) على الجمهور المحتشد حوله كأنه يقول : « ابتعدوا عني . . ما هذا الازعاج . . اتركوني أصوّر ! اتركوني وحيداً » . أحب هومر البحر . . وسكن كـوخه القصيّ ينتظر مواضيع للوحاته . . ابتعد عن كل غريب ، وكان يرفض التعرف الى من لا يعرفه ! كان واقفاً على الصخور ينظر الى كعبته ، فجمدت عينـاه ، كأن شيئاً غريباً قرب منه . . نعم رجل غريب جـاء للتعرف الى ذلك العبقري ، الى سيّد البحار ! وصل الى كوخه ودق بابه ، ولكن لا حياة في الكوخ . . ثم فطن الغريب بشغف الرسام بالصخور . . وبينما هو يمشي بين الصخور اذا برجل عجوز ، رث الثياب ، يحمل في يده سمكة . اهله الصياد ! « ايها الصيـاد . . أتساعدني في البحث عن هومر ، شاعر ملك البحار » ! قال الصياد فوراً : « وماذا يكون لي اذا وجدته » ؟ قال الغريب : « سأعطيك ربع جنيه » ! . . لمعت عينا الصياد ، وقال « اين الربع » ؟ فناوله الغريب الربع . . ولمـا وضع الصيـاد النقود في جيبه ، نظر الى الغريب الفضوليّ ! واستمر يدرس البحر ويغوص في ذاته ، ثم نظر الى ريشته وقال : « أنا هو . . انا ونسلو هومر » ! .

هكـذا كانت عبقريته كشجرة السنديان العظيمة القوية التي تحتـاج الى تراب كثير وهواء نقي لتكبر وتمتد . . وهكذا كما قال جوتيه : « الميول تتربى وتتهذب في الجماعة ، اما العبقرية فبالوحدة » .

ثريا ملحس

معركة الحياة الادبية

بقلم عبد اللطيف شرارة

اهداء الى الاستاذ ألبير أديب

✡

ليس تشبيه الحيـاة بـ « المعركة » بدعة جديدة من بدع البيان الحديث التي يتفرد بها عصرنا ، فإن الاقدمين هم الذين وضعوا هذا التشبيه ، وهم الذين نشروه ، وعنهم نقلـه الذين جاءوا من بعدهم، حتى اصبح تراثاً في الاحقاب يتركه الجيل السابق الى الجيل الذي يليه . ولكنه امسى ككل تراث يناله الوارث من غير كد ولا عناء ، فهو لا يعبر عن شخصية الوارث ، وان عبر عن غنى المورِّث وقواه وجهوده . وهو ايضاً ، بحكم هذا التعبير عن شيء مفقود ، عديم التأثير ، فاقد الحركة ، اذ انقطع عن اهله ، وابتعد عـن اصله ، فانبتّ في الطريق ، لا ايبدي ولا يعيد ! .

ذلك ان واضعيه من الاقدمين كانوا يشهدون المعارك الحربية، ومنهم من كان يخوضها ، فاذا رجع الى الحياة يتأملها في ساعة من ساعات الصفاء ، واخذ يقارنها بما شهد فيها وعرف من شؤونهـا وأحوالها ، استقامت له وجوه الشبه بينهـا وبين المعركـة ، واذا بالبيـان يؤاتيه ، وبالفكرة تتضح لديه صريحة قوية فعالة، ويكون من نتائج وضوحها وفعاليتها ، ان يظل في حالة استعداد للكفاح ، متأهباً لتلقي الضربات بصبر وفهم، والرد عليها بعزم وحكمة . . .

اما اليوم ، وفي جيلنا هذا على الاخص ، فقد تحولت الحياة ، في اطار المدنية المادية الراهنة ، الى صيغ (كليشهات) يحفظهـا الشاب او الفتـاة حفظاً آلياً لا حس فيه ، ولا فكر وراءه ولا حماسة معه :

تجد المتأنق يتأنق ، في لباسه او حديثه او تصرفاته ، تقليداً لغيره ممن شهدهم في السينما ، او سمعهم في النوادي ، او قرأ عنهم في الصحف ، فهو لا يستجيب في اناقته لولع خاص بالجمال ، ولا ينشدها تحقيقاً لرغبة روحية تهزه الى تجميل الوجود من حوله، ومن ثمة الى التأنق في مسالكه ومظاهره .

وتجد المتفلسف يتفلسف – وما اكثر المتفلسفين اليوم ! – توكيداً لنزعات تنزعها نفسه وليس للعقل يدٌ في تكوينها ، وتبريراً لاهواء يطلع عليها الآخرون وليس باستطاعته اخفاؤها ولا التخلص منها ، فهو لا يبحث عن الحقيقة في تفكيره ، ولا يستند اليها في آرائه ، وانما يتخذ الحقائق المتداولة الشائعة بين الناس – واكثرها خطأٌ وضلال – وسيلة لفرض شخصيته والدفاع عن نقائصها .

وتجد المتعلم يتعلم، وليس في نفسه شوق المعرفة ، ولا في جوه حافز الى طلب العلى وسهر الليالي ، ولا في محيطه جواذب تقتاده الى تشخيص مثل اعلى . وانما هي « الموضة » أن يتعلم ابن القرن العشرين ، أو هي « الوظيفة » التي لا يحظى بها المرتزق من غير شهادة ، أو هي « العادة » التي درج عليها الناس في طلب العلم ، ولا يكون الباعث على التعلم ، حتى في النزر النادر ، معنى يرقى به الانسان الى سماء انسانيته الحقة من نشدان للكمال ، أو تطلع لآفاق الحق ، او احاطة بضروب الجمال ! ! .

وهلمّ جرا . . . تجد جميع العاملين في جميع الحقول يمارسون أعمالهم بغير الروح التي ينبغي لهم ان يمارسوها بها ، لذلك ، هي لا تؤتي الثمار الحقيقية المرجوة منها .

اريد بهذا أن اقول ان الحياة ، حياتنا في العصر الحاضر ، لم تعد في ذهننا ولا في واقعنا عبارة عن معركة ، بل هي أشبه ما

تكون بـ « حيلة » وشتان ما بين الوضعين ! فالحيلة ضرب من الاعتداء الخفي الذي يلجأ اليه الجبان ابقاء على نفسه ، والمعركة اقتحام للخطر وتحد للموت ابقاء على شيء أسمى من الحياة ، المعركة رجولة ، والحيلة دناءة ، المعركة اقدام على النضال والحيلة تهرب من النضال .

واذا كانت الحياة العصرية ، في ظواهرها العامة ، حيلة لا معركة ، لان الرجل العصري – ومثله المرأة – يريد النجاح من اقرب طريق ، يريد ان ينتصر من غير ان يتحمل عناء الكفاح ، فهو يتخطى الاخطار ، ويضرب صفحاً عن وجودها اتقاء للاخفاق المحتمل ، او الاندحار المحتمل ، او الآلام المحتملة ، فهمّ التاجر مثلاً ان يربح ، وما عليه اذا حقق الربح ان يكون ربحه حلالاً او حراماً ، غشاً او صدقاً ، ظلماً او عدلاً ، وهمّ المستوظف ان يجلس على منصبه ، وما عليه ، بعد ان يصدر مرسومه ، اكان في مكانه اللائق ام في مكان غيره ، أجاء ليؤدي رسالة ام ليسخر اصحاب الرسالات ، أوظف ليأخذ ام ليعطي ، أترقى به مواهبه الى هذه السدة ام تنحط عنها فالناحية الهامة في نظره ونظر الناس انه بلغ السدة ، سدة الوظيفة ، وهكذا دواليك .. في كل ما يجري من حوادث ، لدى سائر الطبقات في كل المجتمعات .

كل هذا ، اي كل هذه الاوضاع والحالات والظواهر ، تشير فيما تشير ، الى ان المدنية تجتاز انتكاساً خطراً عليها وعلى ابنائها ، فنحن الآن ، رغماً عن هذا العمران وهذه المرفهات وهذه الاكتشافات والاختراعات ، في « همجية متمدنة » . هذه همجية ذات مدارس وصحف ومستشفيات ومختبرات تحتال على نفسها ، وتخادع نفسها ، بالقوانين التي تسنها والفلسفة التي تنتجها والصور التي تظهر بها . ولكنها في اعماقها تشعر بالضعف الذي يتأكلها ، بالازمة التي تنتابها ، بالنكسة التي وقعت فيها .. فهي بذلك ككل محتال يفهم نفسه ، ويخشى ان يفهمه الغير ، فلا يطمئن الى مصيره بحال من الاحوال ...

غيران السر الجوهري في هذا الشعور بالقلق الذي يسود المعاصرين من ابناء المدنية الراهنة ، هو غربتهم عن « الحقيقة » في تناول الحياة وفهمها والسير بها . والحقيقة هي ان الحياة معركة لا حيلة ، والويل لمن يأبى الحقيقة ولا يرضاها ! .

واذا كان من الممكن ان نصطنع المظاهر بما لدينا من وسائل وامكانيات وبراعة في التمثيل ، فان الطمأنينة هي الامنية الوحيدة التي لا يمكن تحقيقها بالصناعة ، لان اصطناعها لا يغني عنها ، ولا يفيد مصطنعها ، بل يزيد في بلبلته ، ويفضي الى اظهار ما يكمن عنده من خوف واضطراب وفوضى ، فيكون قد عثر من حيث اراد ان ينجو ، ويكون بحذره قد دل العدو على مكمنه ، فلا مناص اذن من مواجهة الحقيقة والعمل بمقتضاها ، اي لا مناص من المعركة ، ولا سبيل الى الفرار منها .. واكبر ظني ان هذا ما انقدح في ذهن « نيتشه » يوم قال : « يجب ان نحيا حياتنا بخطر » !

تعال الآن واشهد انواع الحياة التي تمر بها في استعراض الحيوات الانسانية ، من العامل الى الفلاح الى الجندي الى التاجر الى السياسي الى الاديب ، تجد ان الاخير من بين الناس – اي الاديب – هو الوحيد الذي يحيا حياته بخطر ، حتى لتحسب ، حين تبلغ الاعماق ، ان بقاءه حياً ، اعني مجرد بقائه على قيد الحياة مدة من الزمن ، ضرب من الاعجاز ، يضارع كل عمل جليل يراه الناس معجزاً ، وبعبارة ثانية ، تعجب كيف يحتمل الاديب حياته ، وكيف لا يموت ! .

ذلك لان الاديب – الاديب الحق – يحمل وحده رسالة الحضارة الصحيحة من بين مواطنيه ومعاصريه جميعاً ، فلا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، منذ تنعم اظفاره ويطلع على احوال الوجود الى ان يقضي نحبه ويلفظ آخر نفس من انفاسه ، فهو في صراع دائم مع نفسه ، مع بيئته ، مع الاوضاع الاجتماعية ، مع القوانين القائمة ، واخيراً مع الحياة ذاتها التي تشكل في نظره قيداً يمنعه من رؤية الموت وما وراءه .

ثم انه ، الى ذلك ، يكون اغلب ما يكون فاقد العدة ، اعزل من كل سلاح مادي ، يتحامى الناس صداقته كي لا يزجهم في اتون الحرب التي يصلى نارها ، فلا الخاصة ترضيه ولا هو يرضيها ، ولا العامة تقبل عليه وتفهم ما يريد ! هذا ، ان لم تسفه احلامه ، وترميه بلواذع التهم وقبيح النعوت ! .

وتراه ، على الرغم من غربته وانفراده وتألب الحاقات عليه وخلوه من السلاح ، يحارب على عدة جبهات في آن واحد : فهناك عيشه الذي ينبغي له ان يكسبه ، وكثيراً ما يحارب في رزقه ويقطعه عنه اعداء الفكر والحرية ، وهناك اخصامه في الرأي والعقيدة الذين يتربصون به الدوائر ويحوكون حوله الدسائس ، وهناك تلك « التي » يحبها وقد حيل بينه وبينها ؟ او هي امتنعت عليه فلم تسعفه في نضاله ولا تريد ان تسعفه ، وهناك الناقمون الذين لم يرضهم منه هذا السمو ولا اعجبتهم فيه تلك الغطرسة ، وهناك

النقاد الذين يحصون عليه انفاسه ويوصدون امامه سبل الراحة ، وهناك الساسة الذين لا يروقهم الا ان يصفق لهم ويدعو الناس الى عبادتهم . . .

تلك هي سيرة كل شاعر وكل اديب منذ تكونت المجتمعات البشرية الى يومنا هذا ، لا تختلف في جملتها بين اديب وأديب ، او بين شاعر وشاعر ، وان اختلفت في بعض التفاصيل ، الا انها تندرج جملة وتفصيلاً في اطار « المعركة » . ترى لِمَ كانت حياة الاديب معركة متصلة ؟ .

— ذاك لشيء واحد ، هو ان الاديب يقيم وزناً للعاطفة وللفكر ، ولا يرى في الوجود ما يعدلهما في الاثر والقيمة ، بينما يرى الناس من حوله غارقين الى الآذان في المادة واحوال المادة ، ولا يجدون في الحياة غيرها . وليس باستطاعة الاديب ولا في متناول يده ان يسكت ويرضى بالامر الواقع ، لانه اذا سكت انقسم على نفسه وانطفأ ما في روحه من نور ، وفقد سر طبيعته وحرارة كيانه ، فلا بد له ان يتكلم ؛ دفاعاً عن نفسه على الاقل ، ورداً على التحديات التي يتلقاها من البشر على الاكثر ، ومتى تكلم نشأ الصراع ، وابتدأت المعركة التي لا تنتهي الا بموته .

والغريب في امر هذه المعركة انها كانت تنتهي ابداً ودائماً بانتصار الاديب ، ولكنه انتصار من نوع آخر لا يعرفه القواد ولا الساسة ولا التجار ، لانه لا يتمثل في الربح المادي ولا في الزهو الاجوف ، وانما يتمثل في لهفة الناس على ما فرط منهم في الخذلان ، ويظهر في مجتمعاتهم حرية منعشة ، وعاطفة صادقة ، وفكراً نيراً ، ولا يتبدى على اكمل ما يكون النصر الا حين تسري الروح الادبية في طبقات الناس ، تلك الروح التي يعبرون عنها عادة بالذوق الاجتماعي ، ويخلعون عليها صفة اللطف في المعاملة ثم يكون من شأنها ان تخفف من حدة الجشع ، وتكسر شوكة التنابذ والتنازع ، وتمحق اشباح الخوف ، وتجعل الناس يقبلون على التسامح ، وايثار الحسنى وتحقيق التعاون ! .

هذا هو «انتصار الاديب» في المعركة التي يشنها ، والذين يعارضونه فيما يرمي اليه لا يجسرون على معارضته بالوسائل المشروعة لفرط وضوح الحق في يده ، بل يلجأون الى العصا او السجن او الثأر او التهوين من شأنه والغض من كرامته ، والتشنيع على سلوكه والتشهير بما قد يبدو له من هنات وهفوات ، وكلها اساليب تنم عن ضعف سالكيها ، وانخذالهم حيال الحقائق ، لانها تستهدف «الشخص» ولا تناقش الاعمال ، وتقصد الايذاء ولا تحاكم الآراء . فشأن المجتمع مع الاديب يشبه شأن المجرم الذي لا يعترف بجرمه امام القاضي ، مع لحاظ هذا الفارق ان المجرم هنا ، وهو المجتمع ، اقوى من قاضيه ، وهو الاديب ، فاذا ضاق عنه بطش به .

وليس من الضروري ان يكون بطش المجتمع حادثاً مادياً يستعلن كل مرة في القتل والنفي والسجن والتشريد والحرمان ، على غرار ما حدث لدعبل والمتنبي ، او لفولتير ولهوغو ، بل قد يتحقق في « اللامبالاة » التى تسود اليوم اقطار الحياة البشرية ، فان هذا الركود الروحي يفتك بالادباء فتكاً ذريعاً ، ويصرفهم عن الانتاج الفني الى السياسة او الصحافة ، حيث يجدون الصدى الذي يتطلبونه ، وبذلك يغلبهم المجتمع على كل حال ! . .

وهذا ما نشاهده اليوم في الحياة الادبية ، فان افلاس المدنية الراهنة الذي تحدثت عنه في بدء كلامي ، أدى الى افلاس الادب ، فلا بد للادباء من معركة جديدة يشنونها بطرق جديدة ليبلغوا السعادة التي يحلمون بها . . .

واهاً للاديب ما أمرّ حياته ، وطوبى له ما اسعده ! .

عبد اللطيف شرارة

الغصن المثمر

☆

أدنو فمالك تجفو — اليك قلبيَ يهفو
فأي متى يا حبيبي — تعود والجو يصفو
وترتمي في ذراعي — عليه تصحو وتغفو .
وفي عيونك حلم — على جفونك يطفو
فأنت أثمر غصن، — يطيب لي منه قطف !
أبعد حسنك حسن — ام بعد لطفك لطف .

سلا قلبي !

☆

سلا قلبي الأحبة والصحابا — وبعدك في الهوى والله تابا
جمالك فوق حسن الناس حسناً — كأن الى السماء لك انتسابا
ولا تعجب فذلك عن صواب — بحبك ان فقدتُ انا الصوابا .
فعاتبني اذا الك من عتـاب — لأني منك أحببت العتابا
شبابيَ لا يبالي بالمنـايا — فداك اذا اقتضى أفدي الشبابا
مما شعري بوصفك والقوافي — لأني جزت بالشعر السحابا .

رياض معلوف

من العصبة الاندلسية

الفن والمجتمع

بقلم يوسف الشاروني

☆

كثيراً ما تثار مشكلة بل مشاكل حول الفن وعلاقته بالمجتمع . وهي مشكلة ظهرت بشكلها الواضح منذ القرن التاسع عشر ، ولو أنها قديمة قدم تحدث أفلاطون عن علاقة الشعراء بجمهوريته .

وتنشأ المشكلة بقيام مفهومين متضادين ، أولهما يرى ان الفن للفن ، والآخر يرى أن الفن للمجتمع . وكل من هذين المفهومين أبديا على أوجه عدة . فأحياناً كانت نظرية الفن للفن تعني ان الفن — كعملية ابداع وعملية تلقي ايضاً — يقصد لذاته ، فهو غاية في نفسه . اما النظرية الاخرى فتري ان الفن وسيلة الى شيء آخر يعبّر عنه بالمجتمع كما أن اللغة مثلاً وسيلة للتفاهم بين افراد المجتمع . والواقع ان مشكلة الوسيلة والغاية مشكلة ميتافيزيقية ليس لها أساس علمي ، فان ما يمكن ان يكون غاية في بعض الاحيان يمكن ان يعود هو نفسه ويصبح وسيلة لشيء آخر . فنحن دائماً أمام مجموعة من العلاقات المتشابكة كل منها يعمل على تماسك الكل ، كما أن الكل يعمل على تماسك الاجزاء .

لكن ثمة مفهوماً آخر هو الذي سنعنى به هنا ، ذلك المفهوم الذي فيه تتمشى فكرة الفن للفن مع الفلسفة الفردية التي ترى ان ثمة هوات لا يمكن عبورها بين « الأنا » والمجتمع . فكل منا كائن مغلق على ذاته ، ولا يمكن ، ولن يمكن ، ان نفتح مغاليق هذه النفس للآخرين . والفنان لا يختلف في هذا عن غيره . فالأنا لديه لا يمكنه العبور الى الآخر . وتمشياً مع ذلك المذهب وُجد دعاة الهرج العاجي ، حتى اصبحنا نرى في القرن التاسع عشر روائيين يؤلفون روايات عن حياة روائيين ! واصبح الكتاب يكتبون كي يقرأ بعضهم بعضاً ، بل ربما لا يقرأ الواحد منهم الا نفسه !

ما هو الفن

ان الفن بهذا المعنى يفقد ميزته الجوهرية الاولى ، ذلك لأن الفن انما يعبّر عما نحسه جميعاً . اننا لا نهتم بالعمل الفني الا بقدر ما نشارك فيه . حقاً ان الفنان يحصل على مشاركتنا لعمله الفني عن طريق أحداث شخصية وتفاصيل دقيقة ، وهذا بعيد عن ان يكون تأييداً للنظرية الفردية . ولتوضيح ذلك يجب ان نبين أولاً ما هو الفن .

إنه لاعتقاد خاطئ ذلك الذي ينصرف الى ان الممثل الماهر ، هو الذي اذا قام يمثل دور غضب او دور بكاء انفعل حقاً فغضب او بكى لان الفن تعبير ، والتعبير في أساسه عملية وعي . ومن المعروف في علم النفس ان الوعي يبطل الانفعال كما ان الانفعال يبطل الوعي . فاذا لاحظنا طفلاً يبكي ثم رأى نفسه في المرآة ، نجد أنه توقف عن البكاء وأخذ يتأمل نفسه فامتنع الانفعال وبدأ الوعي .. كذلك الفن ليس هو الانفعال بل هو التعبير عن الانفعال وليس وصف الانفعال . فلا نقول ان فلاناً كان حزيناً ، انما نذكر ما يعبّر عن حزنه من حركات او تفاصيل ومن المؤكد ان النحت والرسم يكاد الا يوجد فيهما مجال لوصف كلي عام .

لكن الفن بالنظر الى كونه تعبيراً عن انفعـالات وعواطف عن طريق احداث وتفاصيل شخصية للغاية ، يختلف تماماً عن الفن بمعناه الفردي . فكل منا قد مرت به تجـارب من الحب أو الكره والحزن أو الامل ... الخ وتكـاد الا تتشابه تجربتان بين فردين بل تجربتان في حيـاة الفرد الواحد ، فلكل منا تجاربه الخاصة ، لا بل هناك احداث شخصية للغـاية : اماكن ولحظات واصوات ورائحة عطر ، لا يشاركنا آخر فيها . ومع ذلك فحين يحدثنا الفنان عن هذه الاشياء والاحداث الشخصية يحدثنا في الوقت نفسه عن اشياء واحداث انسانية نستطيع احساسها جميعاً ووجدانها في نفوسنا . ان الفنان الحق هو الذي ينجح في الحصول على الانساني من الشخصي جداً .

الفنان والمجتمع

هذا من ناحية . ومـن ناحية اخرى يمكننا ان نتساءل عما اذا كانت هذه الهوات التي تفترض النظرية الفردية وجودها تفصل حقـاً هذا الفصل التام بين الفنان والمجتمع ، ان الواقع يؤيد ما هو عـكس ذلك تماماً . فالفنان اولاً على صلة دائمة بالفنانين الآخرين، سواء في الأخذ عن طرق تعبيرهم : اي انه يأخذ عنهم طريقة الكتابة او الرسم او النحت او الموسيقى ، او عن طريقة تأمله لآثارهم والتأثر بها . ثم هو عـلى صلة دائمة بمن يقدمون فنه للجمهور ، ولا سيما في حالة المؤلف المسرحي الذي يعتمد عـلى المخرج او الممثـل في قيـامه بأدواره الايجابية الى جانب مسرحيته ، وكذلك المؤلف الموسيقي الذي يعتمد على العازف وقائد الفرقة .

ثالثاً هناك هذه الصلة الحية المستمرة بين الفنـان وجمهوره ، حتى ان الجمهور ليكون عنصراً من اهم العناصر النفسية لدى الفنان اثناء ابداعه عمله الفني ، ولا يتم العمل الفني الا اذا خرج الى الجمهور اياً كان مدى هذا الجمهور : من صديق او صديقين الى كتل الشعب .

الفن الهروبي

اذا كنا الآن قد أبعدنا الفردية عن مجال الفن اولاً ، ثم عن مجال الفنان ثانياً . وعرفنا ان مهمة الفنـان الاساسية هي التعبير عن المشترك بيننـا جميعاً . فانـنا نحب ان نعرض لفهمين متضادين للفن من حيث علاقته بالحياة . احدهمـا يرى في الفن وسيلة للخلاص ، الخلاص من آلام الحياة واعباء المجتمع احياناً بخلق جو آخر خير من هذا الذي نعيش فيه ، واحياناً باعتبار التعبير عملية تنفيس . وقـد تكون الوان كثيرة من الفن الزائف على هذ االوجه ، احلام يقظة او تنفيس نوعاً ما . ان الفن الذي ينشد الخلاص هارباً من الحياة هو فن ميت فقد الحيـاة . لكن الفن الصحيح ، هو الفن الذي يواجه الحياة ومشاكل الحياة ، هو الفن الذي يرى ان الحياة تعبر عن نفسهـا بوسائل متعددة من بينها وسيلة التعبير الفني فالتعبير هنا جزء من الحياة وليس خلاصاً منها ، والفنان هنا يواجه الحياة ويخوض غمار تجاربها بما فيها من حب والم وحزن وفرح . وليس يقصد اطلاقاً الى الهروب وحث الآخرين على الفرار معه .

الجوع والحب

وهنا نحب ان نعرض لفهم خاطيء وشائع فيما يتعلق بالموضوعات التي يتناولها الفنان ومدى صلتها بالمجتمع . فنجد بعض الافراد يرفضون مثلاً الفن الذي يتحدث عن الحب بينما يقبلون الفن الذي يتحدث عن الجوع . وهم يبررون هذا بطريقة لا يحددون فيها معنى ألفاظهم فيقولون ان الفنان حين يتحدث عن الحب فانما يتحدث عن أمر شخصي ، لكنه حين يتحدث عن الجوع فهو يتحدث الى المجتمع . والكلمة التي تقحم اقحاماً هنا هي كلمة « شخصي » . ورغم اننا لسنـا بسبيل الحديث عن المقصود بالذاتية والموضوعية في الفن فاننا نسائلهم هل يقصدون بكلمة « شخصي » الفن الذاتي ؟ ولكن هل حقاً ان الحب – بعكس الجوع – امر شخصي ؟

وهنا نجد نفس الخطأ في فهمهم لمذاهب الفن فبعض المذاهب الفنية – كما يرون – أكثر صلة بالمجتمع من غيرها ، فالادب الواقعي او الواقعي الاجتماعي اكثر صلة من الادب الرومانتي الذي يقولون انه يكاد ألا يعبر إلا عن أحاسيس « داخلية » . وهؤلاء ينسون ان تلك الاحاسيس الداخلية هي خارجية كذلك بمعنى انها خارجية عن الفنان لانها فيَّ وفيك كذلك . ان دراسة بسيطة لتاريخ السيريالزم مثلاً ترينا كيف ان دعاة هذا المذهب قد أرادوا ان يسلكوا مذهباً قوي الصلة بالمجتمع والتعبير عنه عن طريق

الكشف من العقل « الباطن » وفضح المآسي والاحلام المفزعة التي يعانيها الناس في أنفسهم في مجتمعنا الذي ينحل • فحتى المشاعر الباطنية ليست شخصية بل كلما تعمقناها كلما وصلنا الى الجذور الانسانية العامة . كما أنه قد أيدت التجربة ان المذهب الفني الواحد يمكن ان يعبر به فنانون من مختلف الطبقات ، كل يعبر به عن مصلحته ومصلحة طبقته . فالمذهب ليس منفصلاً عن الفنان .

ان الفنان الذي لم يعرف الجوع يوماً ما لا يمكن ان نأمره بأن « يتخيل » الجوع ، انه في هذه الحال سينتقل من مجال الاخلاص الى مجال التصنع ومن مجال الفن الى مجال الدعاية . وفي هذا مخالفة صريحة للفهم العميق للأسس المادية للفن . وهذا معناه العودة الى العصور الوسطي حيث كان الفن مرتبطاً بالاخلاق والدين . ومن الخطأ ان نقول للفنان الذي يحس الجوع والحاجة الى الحب نرجوك ان تعبر لنا عن جوعك فقط ، أما حبك فهو لا يهمنا . ان اللحظة التي يبدأ فيها الفنان التعبير عن جوعه او حبه او يأسه او تفاؤله هي اللحظة التي فيها يبدأ محاولة رائعة جبارة للعبور من الشخصي الى الانساني .

ان الحب — كالجوع — مشكلة في مجتمعنا الحاضر الذي يقيم هوة بين الرجل والمرأة ، والفنان يتناول هذه المشكلة ما دام هو يحس بها • حقاً انا اعلم ان فرية يخشى ان يستحيل الحب الى اداة لاثارة احلام اليقظة لدى جماهير الشعب المكدودين ، ووسيلة لصرفهم عن واقعهم ومشاكلهم ، لكن هذا لا يتعلق بموضوع الحب بل بطريقة تناوله تماماً كما وضحنا فيما يتعلق بالمذهب . فثمة فارق مثلاً بين اثنين يتناولان موضوع الحب ، الواحد يعبر عنه في ذلة وانكسار واستسلام ، والآخر يعبر عنه في روح حية واندفاع حلو حتى لتحس الوجود كله ينبض معه . فالموضوع ليس منفصلاً كذلك عن الفنان ولا عن واقع الفنان . كالآلة في العالم ليست سيئة بذاتها ولا مفيدة بذاتها بل بطريقة استعمالها ومن يستعملها .

الفن والاصلاح الاجتماعي

وهنا نحب ان نفرق بين المصلح الاجتماعي او السياسي وبين رجل الفن . فرجل الفن هو الذي يعبر عن عواطف بيئته وطبقته ، اما المصلح فهو الذي يحاول ان يصف داء بيئته ودواءها . وقد قلنا ان الفن تعبير وليس وصفاً .

ونحن اذا اردنا ان ننهج منهجنا العلمي ، فلا يمكننا ان ننكر ان هناك فناً اقطاعياً ، وفناً برجوازيا ، وفناً اشتراكياً • وكل من هؤلاء استحق لقب الفن من جهة انه تعبير بغض النظر عن المجتمع الذي كان يعبر عنه . ولهذا يجب تجنب الخلط بين الطبقة او المجتمع الذي يمثله الفنان ويعكسه بالضرورة في فنه ، وبين قدرته الفنية على التعبير عن هذه الطبقة او المجتمع . حقاً ان قولنا ان هناك فناناً لا يعكس مصالح معينة مستحيل كقولنا ان هناك فناً بغير فنان ، لكن هذا لا يؤدى بنا الى ان الفن يستأثر به فنانون يعبرون عن مجتمع بالذات ، او طبقة بالذات .

مهمة الفنان

واذا كنا قد ادركنا الان ان التعبير الفني معناه الوعي بعواطفنا ، وان مهمة الفنان ان يعي عواطفه التي يشارك فيها الآخرين ويترجمها لهم بلغة ما : في احرف أو الوان أو اصوات ، عرفنا ان الفنان العبقري هو الذي يعكس وضعه ويعبر عنه . اما الفنان الزائف فهو الذي يهرب ، وهنا تنشأ فنون زائفة مثل فن اللهو الذي ظهر بظهور طبقات طفيلية تريد ان تتلهى بشيء ما غير جدي . وغالباً ما كان قواد هذا النوع الدخيل على الفن من غير هذه الطبقات الطفيلية ، لكنهم خانوا اوضاعهم وحاولوا ان يعملوا على مسرة اسيادهم بدلاً من التعبير عن انفسهم . كذلك ظهر فن اللهو في شكل هروبي لدى الطبقات البائسة كما حدث في مجتمعنا الحاضر حيث اشتد الاقبال على الروايات البوليسية والاقاصيص المشحونة بالحوادث الجنسية التي لا نتردد في اخراجها عن مجال الفن .

فكما ان المفكر يحاول ان يعي لنا اتجاهاتنا ، كذلك الفنان يحاول ان يعي لنا عواطفنا ويعبر لنا عنها . لهذا كان الفن آداة من اهم ادوات الوعي في المجتمع ، فهو يشارك في عملية المعرفة . ولهذا فالفنان الحق هو الذي يعي عواطفه والجذور التي كونت هذه العواطف والاوضاع التي تربط بينه وبين غيره بحيث تنشأ عنها هذه العواطف المشتركة العامة ، ثم ينقل الى مجتمعه او طبقته هذا الوعي .

القاهرة يوسف الشاروني

تركة اب

☆

كنت اذ ذاك اشتغل ضابطاً في مباحث المدينة، وكنت بحكم منصبي والبيئة التي نشأت فيها، ومركز والدي الذي كان ملحوظاً في الهيئة الاجتماعية. كنت بحكم ذلك متمتعاً بأوفر قسط من احترام الناس وتقدير الرؤساء . بيد ان هذا لم يصدني عن الواجب الذي فرضته عليّ الوظيفة، والذي كرست له كل ما املك من جهد ووقت ونشاط، فكثيراً ما كنت اسهر الليل مكباً على مكتبي حتى الشروق، دون ان يتسرب الملـــل الى نفسي، ودون طمع في شيء سوى اشباع رغباتي التي كانت تدفعني دائماً الى البحث عن الحقيقة، ومعرفة سر الجرائم التي كانت ترتكب في ذلك الحين، على ما كان يتعمد مرتكبوها من اخفاء معالمها خلف نقاب تتفتق عنه عقولهم الجبارة واخيلتهم الفذة .

وصدف يومئذ انه وقعت جريمة قتل مروعة ذهب ضحيتها احد العظماء، امسك الآن عن ذكر اسمـــه، كي لا تظن الظنون بحوادث الجريمة، ويساء الى اناس وجب علينا احترامهم بالامساك عن فضائحهم، مهما كانوا ومهما احدثوا في نفوسنا من جراح .

وكان للحادث اثره السيء في نفوس الناس عامة، فقد عزوه في حينه الى عوامل اخرى، لو انها صدقت لكانت سبباً لاثارة الرأي العام وسخطه، فاهتمت الحكومة القائمة اذ ذاك بالحادث، ورأت انه من الضروري القاء القبض على الجاني، الذي تمكن من الفرار عقب ارتكاب الجريمة، ولكن بعد ان عرفت شخصيته، وتمكن المجني عليه من اعطاء اوصافه بدقة قبل ان يلفظ النفس الاخير .

ودلت جميع التقارير التي وصلتني، والتحريات التي قمت بها، على ان الجاني يقيم في نفس المدينة، وانه يتردد على بيت راقصة مغمورة الاسم، تشتغل في احدى الصالات، وتقيم بمفردها في مسكن متواضع بين المساكن الحديثة المنبثة على طريق النيل عند الجزيرة، ونمي اليّ انه يتردد على هذا البيت ويقيم فيه من زمن بعيد يرجع الى بدء علاقاته الغرامية بهذه الراقصة التي عرفت باسم — عطيات الاسكندرانية —

فواقبت البيت، واقمت حوله سياجاً من العيون التي لا تغفل واموت بتعقبها في كل مكان تؤمه، دون ان تعرف شيئاً من ذلك، او تحس بجديد في حياتها. ودامت هذه الخطة اياماً ولكنها لم تأت بنتيجة تطمئن . فلجأت الى العنف والعنف القاسي المرير الذى لا يقره الضمير مع امرأة، فاستصدرت امراً بالقبض عليها ومهاجمة بيتها وتفتيشه . ولكن لم نعثر فيه حتى على شبه دليل يثبت تردد اي رجل على هذه الدار . وجيء بها الى مكتبي ترزح تحت اغلال السلاسل الحديدية التي كبلت بها — على الرغم من ان القانون لا يقر ذلك . وكانت هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها عطيات الاسكندرانية يوم مثلت امامي، فلفت نظري وانا اراها لاول مرة جملة اشياء لم اعهدها تجتمع كلها على امرأة فرحت اطيل اليها النظر والتأمل .

كانت امرأة فارعة القد فارهة الجمال. ذات قوام ساحر اخاذ، تتمنى كل امرأة ان تكونها . وكانت يومئذ في طفرة شبابهـــا مكتملة الانوثة ناضجة الثمار التي يغري العين نضجها فتروح في جنون معربده حيناً، ومتمادية حيناً، وهي تتخطى منعطفات الفتنة في الجسد الفتي المتموج. بيد ان هذا الجمال الذي تبهرك معالمه وتعريك اوضاعه، كانت تشوبه سحابة سوداء اكتنفته ولفته بنقاب خفيف من الشحوب مشى في سيمائها ليحجب نفسها المطعونة التي سجت حزينة على



بقلم امين يوسف غراب

ملامحها بعد ان صرعها الاسى على ذلك الجمال الذي طوح به الجوع فتلقفته الخطيئة . والقت به نهباً مشاعاً بين ذئاب لا يفتأون يخفون انيابهم الطويلة بين شقي رغيف ملوث من الخبز .

ترآءت لعيني هذه الصور فاشفقت على المرأة الماثلة امامي ، حتى لكدت اتنحى لها عن مكاني ، لولا انني تذكرت واجبي فبادرتها في خشونة ، وقلت بصوت لم يصف من الازدراء ، ولم تفته رقة عطف ورثاء :

— انك متهمة باخفاء احد المجرمين في بيتك ؟ .

فلمعت عيناها ثم اسبلتها وصمتت حيناً على انها انبعثت تنكر التهمة ، وتنكرها في حرارة تجسمت فيها نبرة الحق . غير انني رحت أكابر وادفع اليها بالسؤال تلو السؤال ومكثت بها زمناً اصب عليها جام غضبي واذيقها الواناً وصنوفاً من الاذى والتعذيب دون ان اظفر منها بنتيجة ؛ اللهم الا نظرات وجلة حزينة كانت تلقي بها اليّ في خشوع وتضرع فتهز نفسي هزاً عنيفاً ، بيد انها لم تثنني عن العزم في تضييق الخناق عليها . وظللت بها احاورها واداورها حتى ضقت بها ذرعاً فأمرت بالقائها في السجن ومن ثم ذهبت الى بيتي ، افكر في هذه المرأة التي هي النجم الوحيد الذي ظل امامي يتألق في سماء هذه القضية الغامضة .

وفي الصباح جيء بها من السجن ، وكانت كوردة الصيف خنقها حر الظهيرة فانقطعت انفاسها المتضوعة . فسألتها على الفور جملة اسئلة جديدة اجابت عليها جميعها بما يثبت براءتها ويزيد الموقف غموضاً وتعقيداً . وحين امرت باعادتها الى السجن ثانية ، رنت اليّ بطرف صامت وتمتمت . — انني جائعة .

ولست ادري لماذا ارتعدت فرقاً لمجرد سماعي هذه الكلمات التي القتها في ذلة وانكسار . — او لم يسأل عنك احد ؟ .

فقالت مطرقة وقد ردت الى نفسها الملتاعة طرفها الحزين .

— ليس لي في الوجود من يسأل عني .

وهممت ان اقول لها شيئاً ، ولكن الكلمات ماتت عندشفتي ، فاشحت بوجهي عنها وامرت باحضار الطعام لها في الحال ، والانفاق عليها من جيبي الخاص طيلة مده التحقيق الذي يستدعي وجودها في السجن ، ولقد استغرق قرابة الشهر دون الوصول ، مما الها ن يرتجى . ولما امرت باطلاق سراحها احسست بشيء يشبه شآبيب الضيق وطلائع الاسى يغمر نفسي ويرهقها ارهاقاً شديداً .

ومخادعة لنفسي لم ارجع ذلك الى حرماني وان كنت كثيراً ما شعرت بشيء من الطمأنينة كلما حدثتها اثناء التحقيق او نظرت اليها . ولكن ارجعته الى الحقيقة المرة التي صدمت بها ، وهي العجز عن الوصول الى شيء مع هذه المرأة يمكنني من متابعة التحقيق ومعرفة مكان الجاني . ففكرت على نحو آخر وثقت من نتيجته وذلك بأن اتردد على الصالة التي تشتغل فيها عطيات . واتصل فيها وابثها غرامي المزيف . واثار امامها صحيفة عواطفي التي سافعمها بعبارات الغرام الكاذب ، واطليها بالوان الحب المنافق الذي وجد تربته اثناء التحقيق ، وبهذه الطريقة وحدها استطيع ان اقف على السر الغامض .

ولست ادري ايضاً لماذا اطمأنت نفسي الى هذه الفكرة ورحبت بها وارتاحت اليها وراحت تدفعني دفعاً الى تنفيذها بلا تريث او هوادة .

وما ان اقبلت الساعة العاشرة مساء حتى كنت عند باب تلك الصالة التي تشتغل فيها عطيات الاسكندرانية . وطالعتني في ابوابها عدة اعلانات كبيرة ملونة تحمل رسوماً مبتذلة تبدي عطيات في اوضاع مستهترة من اوضاع الرقص الشرقي الذي يميت في نفسك كل شيء الا الشهوة في اعنف ثوراتها . وكتب تحت الاعلانات بالخط العريض هذه العبارات التي تأملتها طويلاً وانا ابتسم « الراقصة العالمية عواطف الاسكندرانية ، التي عادت اليكم بعد رحلتها الموفقة في الاقطار الشقيقة » .

وحلا لي الوقوف امام هذه الاعلانات ، أتأملها واعيد قراءة عباراتها المزيفة ، ولولا تلك الرائحة الكريهة ، رائحة العرق وعصير القصب الحامض التي انبعثت من افواه اولئك العمال والباعة المتجولين من ذوي « اللاسات » البيضاء الناصعة رواد صالة — الانس — الذين تجمعوا على بابها يطالعون الاعلانات قبل دخولهم لوقفت طويلاً .

بيد اني تركتهم الى الداخل وانتحيت مكاناً قصياً وجلست اتأمل قذارة صالة الانس ومجون اولئك السوقة الذين يغرقون انفسهم في بحر من القاذورات التي يخلفها الجسد الموبوء ، ويخلقها ويذكيها الكبت الذي صرع انسانيتهم فغدوا كالحيوانات كلما لاح لهم خيال امرأة تهافتوا عليه تهافت الصراصير على المستنقع العفن . وفجأة اطفئت الانوار ، ولاح شعاع احمر غمر المسرح وخضبه بالدماء . . وتفتحت العيون واشرأبت الاعناق ، وعلا صوت الجاز حتى غدا صاخباً كالعاصفة . وفجأة ، ومن بين ثنايا هذا الشعاع الاحمر اقبل خيال ، من بعيد اخذ يروح ويجيء مرة ، ويرتفع وينخفض مرات وشيئاً فشيئاً ظهرت عطيات يتلألأ جسدها اللدن الذي بدا عارياً الا من ثوب الرقص الرقيق الخفيف المحلى — بالترتر وخرج النجف — واقبلت على المسرح كما تقبل الافعى تتلوى ، وفجأة دوى

التصفيق وتعالى الهتاف ، وغدا القوم جميعاً كمن اصابتهم لوثة ، الا « انستاس » صاحب الصالة الذي كان ينظر اليهم ويضحك ، ثم ينظر الي ويساوم ممنياً نفسه بالربح العظيم فيما لو تمت الصفقة .

ولما انتهت عطيات من رقصتها اقبلت عليّ مع انستاس ، وما ان رأتني حتى امتقع لونها ، وعلا وجهها شحوب كاد يطمس معالمه ، لولا انني بادرتها بالترحاب وصافحتها في حرارة واشتياق ثم اجلستها بجواري ورحت احدثها حديثاً لا اذكر منه شيئاً سوى انها اغتبطت به كثيراً ، عبرت عنه فيما بعد بانه كان اول سهم اصاب احزانها . ولما اطمأنت اليّ وارتاحت نفسها الحزينة الى صداقتي تكشفت لي هذه المرأة عن حقيقة كنت اجهلها وهي انها تحمل بين جنبيها نفساً ابية طاهرة ما كنت اصدق ابداً انها تعيش في جسد ملوث . فقد اطلعتني عطيات فيما اطلعتني عليه بخفايا اسرارها . فعرفت قصتها الحزينة الباكية التي قصتها عليّ في ليلة كئيبة ممطرة وهي تسكر معي في بار — السعادة — المجاور لصالة الانس ، الذي اتخذناه فيما بعد مسرحاً لغرامنا الجديد .

كانت امها تشتغل خادمة عند رجل من عظماء الرجـال ، وكانت تملك جمالاً لا حد له ، اغرى بها ذلك الرجل العظيم الذي كان لا يبالي ان يهبط من عليائه دائماً كلما شاق ناظريه جمال ثمين لمكة امرأة ذليلة . فجثا باكياً عند قدميها ، واخذتها دموع التمساح الذي كانت تجهل انه يعرف البكاء . فعصفت بها المفاجأة ولم تفكر في شيء سوى الانفلات معه في طريق حـالك شائك غير معبد ، ولما بلغا نهاية الشوط ورجعـا الى وكريهما هو في السماء ليشرف بعظمته ويطل بجاهه العريض . وهي في الارض تذيب كيانهـا وتنهك قواها لتجد ما تتبلغ به — وجد في طريقها جنين ينكره ابوه وتحنو عليه جوارح امه .

ومع ذلك فشقة الخلاف لم تتسع بينهما ، اذ انها لا تتسع ابداً بين من تدميه عضات الجوع ، ومن يشكو التخمة . فقنعت الام بان اخذت مبلغاً من المال لدموعها التي ستجعل منها مجراً تغرق فيه جريمة الرجل ، تلك الجريمة التي تمخضت عن « نعيمة » التي عرفت فيما بعد باسم عطيات الاسكندرانية .

هذه القصة قصتها عليها امها ، وهي تلفظ النفس الاخير ، ثم ختمتها مع انفاسها وهي تصرح لها لأول مرة باسم والدها العظيم ، الذي اعطتها صورته لتتعرف عليه . ان هي ارادت او احبت ان تحنث بوعود امها له . ولكن الابنة كانت نبيلة كأمها ، فآثرت الحرمان والجوع على لحظة ألم تسببها لرجل عظيم من العظماء ، وفضلت الشارع على ذلك ، وراحت تعبره ليلاً ونهاراً توزع اوراق (الناصيب) على الناس حيناً ، وتتلقف احياناً ما يلقون به من اعقاب اللفائف ، الى ان اهتدى اليها انستاس ، فانتشلها من وهدة العوز الطـاهر ، والقى بها في يم اليسار الملوث .

قصت عليّ عطيات هذه القصة الحزينة ، التي كانت تصل بين حلقات حوادثها بالدموع ، والتي لو عرفت ما سببته لي من الم لما قصت علي منها حرفاً ، والغريب انني حاولت المستحيل لاعرف اسم ذلك الرجل فلم استطع . وكثيراً ما كنت اغافلها ونحن في لحظة من لحظات الاسترسال والقي عليها نفس السؤال فكانت ترده الي في الحال ولكن باسلوب ضارع كان يرديني صاغراً عند رغبتها . ثم افهمتني انه ان قدر لها ذلك واطلعتني على اسمه — الذي هي نفسها لم تر وجه صاحبه ولا اين يقيم ، وهل هو حي ام ميت — ان قدر لها ذلك وصرحت لي به فسيكون ذلك مع آخر انفاسها كما فعلت امها .

وان كنت احترم عواطفها حقيقة كما أقول واظهر وما أحق البغايا — على حد قولها — في ان تحترم عواطفهن فلا استكشف ثانية هذا الامر ، او احاول معرفة هذا السر الذي احتفظت به لنفسها ، والذي تعتقد انه الذخيرة الباقية لها من اعمال الخير ان كان يصح لمثلها ان تقدم خيراً ، فاحترمت رغبتها فعلاً وعاهدتها صادقاً على ما تريد . ثم انصرفنا من « البار » الساعة الرابعة صباحاً كعادتنا كل ليلة . . اما هي فالى دارها واما انا فالى افكاري الجديدة التي غيرت عندي كل شيء وبدلته ، وجعلت من تمثيلي حقيقة ، ومن عطفي على عطيات حباً عنيفاً ، احسست معه ان هناءتي وسعادتي في الدنيا ان قدر ان اسعد حقاً مرتبطة ارتبـاطاً وثيقاً بهذا الحب فاهملت القضية وكان طبيعياً اني اهملها والقيت بها من على كاهلي وبت لا افكر الا في عطيات ، التي كنت اذهب اليها كل ليلة في الصالة لاراها واجلس اليها ، حتى لعرفت بين روادها بالعاشق الجديد الذي تيمه الحب وشفه الوله . ومع ذلك لم استنكف هذا ، بل كنت اسر به ، غير ان الذي كان يؤذيني ويؤلمني حقاً وذرفت الدمع من اجله مرات هو شعوري انها نهب مشاع للجميع ، واحست بذلك فعملت جاهدة على تلافي اسبابه دون ان تظهرني على شيء . فهي نفسها التي قللت من ظهورها في الصالة ، وجلوسها مع الرواد ، ثم حرمت ذلك على نفسها طيلة وجودي ، حتى بدأت المؤامرات تدبر ضدها ، وضاق بها انستاس وتبرم فعلاً بوجودها ولولا خشيته من سلطاني لنبذها من زمن بعيد .

بيد ان حياتها في الصالة لم تدم بعد ذلك طويلاً ، فقد حدث

ذات ليلة بعد ان انتهت من رقصتها ، ان نزلت الى الصالة وجاءت لتجلس معي كعادتها فاعترضها احد المخمورين وطلب اليها ان تجلس معه ، فأبت فعظم عليه وهو الثمل المخمور الا يجاب له طلب ، فتناول الزجاجة التي امامه وهوى بها على رأسها فسقطت تتخبط في دمائها .

لحظتئذ لم اعرف كيف كان شعوري ، ولا الذي حدث في الصالة على وجه التحقيق . وكل الذي اذكره انني كنت اول من اخذها في صدره المتاع ، والدموع تتساقط من عيني فتختلط بقطرات الدم التي تنساب من رأسها .

ولما افاقت من اغفاءتها صباح اليوم التالي والفت نفسها في المستشفى ، فتحت عينيها فرأتني امامها بجوار السرير اطيل النظر اليها حيناً ، واجفف دموعي حيناً آخر . فرفعت هدبيها الطويلين ونظرت الي نظرة طويلة . ثم مدت يدها المرتعشة وجففت دموعي بأناملها المتعبة وربتت على رأسي المضطرب ، وتمتمت بشفتين باردتين مرتعشتين ، انساها طول الصمت مرونة التحدث .

— احمد .. انا بخير .. لا تبك .

واحسست باسمي وهي تلفظه مجرداً ، خفيفاً رقيقاً عذباً ، تنسكب حروفه في اذني دافئة فتهدهد قلبي ، واحست هي ذلك فتناولت يدي ووسدتها راحتيها ، ومن ثم لبثت لحظات تنظر مسبلة الهدب منتشية الفؤاد ، وضاحة الجبين الذي راحت انواره تداعب عيني ، ومن غير ان اشعر مددت شفتي ووضعت على الجبين الحالم الوضاء قبلة ، فاحست وهي نائمة بحرارة القلب تنساب الى جسدها ، فاستيقظت نشوى ورنت الي ثم خلصت يدها من يدي ووضعتها على شعري الذي راحت اناملها تسوي خصلاته في سكون طاهر بريء . وفي رهبة هذه اللحظة عاودت النظر الي وقالت .

— هل سأذهب الى الصالة ثانية . قلت .. لا ..

فقالت وقد القت بنظرها كله الى عيني .

— ومن اين اعيش ..؟

فتمتمت والسعادة تكاد تعصف بكياني كله حتى يدي المستسلمة لأناملها .

— نعيمة .. انك من اليوم زوجتي امام الله .. وغداً امام الناس . ولم تقض تلك الايام القلائل التي حددها المستشفى لخروجها مكتملة الصحة والعافية ، حتى كنت قد انتهيت من كل معدات الزواج ، الذي اخفيته حتى عن اقرب الناس الي . لا خجلاً او تهيباً ، ولكن ضناً بسعادتي ان يشاطرنيها انسان . فرتبت امري على ان يعقد العقد في بيت المأذون نفسه ، ثم اذهب مباشرة الى بيتي الذي جعلت منه عشاً جميلاً لحبنا الوليد ، ومهداً وثيراً لأحلامنا ، ومرتعاً خصباً لسعادتنا البكر .. آه .. ايها الصديق . كم كنت اود ان اكون وصافاً بارعاً ، او محدثاً لبقاً ، حتى اصف لك مبلغ سعادتي ، واتحدث اليك عن مدى هناءتي وانا معها ، يدي في يدها امام المأذون وهو يباركنا ويلقننا تعاليم السماء .. او اقص عليك لذتي وانا أتأبط ذراعها على سلم داري الذي كنت اصعده لأول مرة مع زوجتي .. والذي ما ان وطئت قدمها اولى درجاته حتى تعالت ضحكاتها التي راحت تعطر البيت كله . وتضفي عليه نوراً وبهجة ، ما كنت اظن ابداً انها تدخل البيوت حتى في اعقاب النسوة الطاهرات .

ثم لما دلفنا الى البيت رحنا نطوف بغرفاته غرفة غرفة . وهي امامي كالطائر الغرد يجر الذيل هيماناً من فنن الى فنن يرجع الحانه ويرتل انغامه . وبلغنا غرفة الصالون فدلفت هي اليها ، ووقفت انا اعطي الخدم بعض التعليمات .. بيد انني لم اكد افعل حتى سمعت فجأة جسماً ثقيلاً يسقط على الارض ، اعقبته تأوهات وزفرات محمومة مخنوقة ثم بعض كلمات متقطعة مضطربة لم اميز منها شيئاً .. فاندفعت مجنوناً الى الصالون ، فوجدت نعيمة ملقاة على الارض مبعثرة الشعر ورأيت بعض خصلاته متقطعة في يديها . ورأيتها جاحظة مربدة ترتعش وتهتز اهتزازاً عنيفاً والدموع تنهمر بغزارة من عينيها اللتين ثبتتا في صورة زيتية كبيرة حلي بها الصالون ، تحمل رسماً جميلاً لأبي . وتردد بصوت محموم كان يتدهور مع انفاسها من ثغر ملتهب اشبه بفكي افعى تنفث السم وهي محطمة الرأس .. ابي .. ابي ..

وصمت محدثي لحظات جفف فيها هو الآخر عبراته المنسابة .

ثم مد طرفاً مضطرباً الى عرض النيل الذي كنا نجلس على حافته نتحدث . ومكث حيناً يرقبه ويتأمله ، كمن يبحث عن امل هوى في قاعه .. ثم رد الي الطرف شاحباً باهتاً . وقال .

— ترى هل يكرم هذا النيل العظيم وفادة اولئك الذين يلجأون اليه .. ام تراه هو الآخر عظمة زائفة ، قامت على اشلاء البائسين امثالنا .

ورأى موجة الاضطراب التي ساورتني فجأة ، كأنني خشيت امراً . فقال مبتسماً .. — لا تظن .. انا اردت فقط ان اطمئن عليها .

ثم انصرف وحيداً يسير على الشاطىء . فشيعته بعيني حتى توارى هو الآخر .

القاهرة — امين يوسف غراب



أغاني الريح

☆

املئي الليلَ شجوناً واعزفي   لحنكِ الدامع واستجدي السماء
غني يا ريحُ فكم يطربني   منكِ مطاول الاغـاني بالبكاء

إنسجي الوشيَ ولفّي وافتلي   وانفشي القطن وكوّي واغزلي
يا عجوزاً دوّرت في المعمل   ألفَ دولابٍ، متى يُنهى الكساء
كنّسي الارض ورشي، وافرشي   أبيضَ الديباج فالضيف الشتاء

عمّري البحرَ بروجـاً وانصبي   قبب الاشبـاحِ فوق الهضب
واكتـبي اسطورة للشهبِ   من خرافاتِ غيومٍ وضيـاء
وارسمي الأفق خطوطاً مثلمـا   شئتِ او شاء خيـال الشعراء

ردّدي انشودة اليمِ القديمـه   انت للملاّح مـا زلتِ نديمه
هوذا الملاح قد جـاز تخومه   في عباب السحب خفّاقَ اللواء
يحمل الهمّ والعطر عـلى   ثبجِ الخصب الى شط النماء

غني يا ريح اللحون الاربعه   واعزفيهـا للملا في زوبعه
حبّذا الأم ونعمَ المرضعه   هدهدي الطفل وغنّيه الرجـاء
فوق زنديكِ ربيعٌ حـالمٌ   بقماط الغيم ملفوف الرواء

ارجحيه في السرير الاسود   سبّحيه في الغمام المزبد
عطّريه بشذا المسك الندي   ألبسيه الوشيَ من نسج الضياء
ولـه هزّي وغنّي وانشدي   قد عرفنا اليوم أسرار الغناء!!

فارس سعد

معالم التصوف

بقلم نسيب الاختيار

☆

ذهب المؤرخون في بحث مصدر التصوف مذاهب مختلفة ، فمن قائل ان مصدر اسم التصوف ،الصوف، شعار الصوفية في كل زمان وفي كل مكان، ومن قائل انه الصفاء ، هذا الشرط الأساسي الذي لا بد للصوفية منه ولا غنى لها عنه ، ومن قائل انه صوفيا آلهة الحكمة عند الاغريق ، ومن قائل انه الصفة وهو مكان أقام فيه رهط من الناس وفد على النبي في المدينة وقضى الحياة في تقشف وورع ، ومهما يكن مصدر هذه الكلمة ، فالأمر الجدير بالذكر انها قديمة قدم الحياة، مرت في مراحل تاريخية معينة واتخذت لنفسها صفة هذه المرحلة ، بحيث كانت تفاصيلها واجزاؤها تتجاوب مع طبيعة العصر ، فقد عرف تاريخ الفكر الانساني التصوف لدى الاغريق كما هو الحال عند (بلنباس الطواني) ، وعرفه في عهود الحضارة الاوربية كما هو الحال لدى (برنسلوس) ، وعرفه العرب في ايام الجاهلية ، كما هو الحال لدى اولئك الذين نذروا أنفسهم للزهد والتقشف ، ولكن التصوف عند العرب لم يأخذ لذاته طابعاً فلسفياً الا في العهد الاسلامي ، فقد كانت حياة النبي في غار حراء، أقرب ما يكون الى النسك الذي خصّ به الصوفية ، فلما قبض النبي سار صحبه على غراره ، لا بل ان الأوضاع السياسية التي مرت على العرب في ذلك الحين حملت فريقاً كبيراً من الصحابة والتابعين على الزهد والعزوف عن الناس ، فهؤلاء الذين صدفوا عن الدنيا في صدر الاسلام ، كانوا في الحقيقة نواة التصوف الاسلامي ومصدره الاول ، غير ان تصوفهم كان بدائياً أوليا تعوزه الفكرة التي تقوم عليها دعائم التصوف الفلسفي ، وذلك لان العرب في تلك المرحلة من الزمن لم يطرقوا باب المعرفة المجودة ولم يصل بهم المطاف الى المرحلة التاريخية التي يستدعيها تمازج الثقافات ، بالرغم من كون طبيعة البدوي طبيعة صوفية — الى حد ما — كما قضت عليه بذلك طبيعة بيئته، فلما مرّ العرب بتلك المرحلة التاريخية واشتبكت الثقافات وتلاقت المعارف ، اخذ التصوف لنفسه طابعاً فلسفياً خاصاً به يعبر عن ذاته باساليب حافلة بالاسرار زاخرة بالرموز، أما مصادر هذا الطابع التي تركت أبعد اثر فيه ، فقد ظلت ملتبسة غامضة ، اذ ليس في وسعنا ارجاع طابع التصوف الاسلامي دون غيره ،وذلك لأن التصوف الاسلامي هو حصاد التصوف الذي عرف في الاحقاب الغابرة ، فنستطيع القول ان طابع التصوف الاسلامي مزيج مركب من الصوفية الهندية والفارسية والاغريقية ، والنصرانية . وكانت هذه النزعة الصوفية تتطور مع التطور الثقافي للعصر ، وتخلع عليها في كل مرحلة شيئاً جديداً يسير وفاق انطلاق دولاب الحضارة ، وتجلى لنا هذا التطور بصورة بينة واضحة لدى (البسطامي ، والشيخ القتيل ، والحلاج ، وابن عربي ، والجنيد الخ . . .) وليس في مقدور الانسان الاحاطة بتفاصيل واجزاء هذا التطور ، فيا اذا لم يعد بنفسه قليلاً الى الوراء فيطالع البوذية والفلسفة الاغريقية والنصرانية وما الى ذلك من العقائد الدينية والفكرية التي كان لها أبعد اثر في معالم التصوف الاسلامي .

نعتبر البوذية عقيدة محفوفة بالاسرار ومزيج ديانات مختلفة ، وخاصة دين الغزاة والفاتحين الآريين ، ولهذا الدين طابعه الفلسفي الرفيع ، فالبوذي لا يأكل اللحم ولكنه يقدم القرابين الدامية للآلهة ، ويرى (قوريس بوشور) في حديث له عن البوذية ان هذا الدين ليس عقيدة بل عالم عقائد ، بدأت بعبادة الطبيعة ثم صار الوجود في عرفها أروع مظهر من مظاهر الذات الانسانية ، والآلهة ليست رمزاً لقوى الطبيعة بل مظهر لابداع إلهي ، والعالم ذاته ليس الا رؤى ، ومن

وراء عالم المادة تختفي حقيقة روحية ترجع الى ذاتها وعليها أن تتحرى عن الحقيقة الروحية وهي مطلقة من قيود المادة، لان المادة خداعة. وما مَثَلُ الانسان الأعلى الا الفرار منها والعزوف عنها لا السيطرة عليها، وتدين البوذية بفكرة (كاراما) تلك الفكرة القائلة ان الروح مرتبطة مع العصور البعيدة، والحياة في مفاهيمها تتحدر من حياة الى حياة، وهي ليست عقيدة عمياء اذ تعتبر الانسان مسؤولاً عن عمله في هذا الوجود، كما تدين بوحدة روحية مطلقة مع اللانهاية على اساس التلاشي فيها او بالأصح الاتحاد مع اللانهاية، والله لا يتجلى الا بالوحدة معه.

والمذهب الرواقي اقرب المذاهب الى تعاليم سقراط، وغاية هذا المذهب اخذ الانسان بأسباب الحكمة حتى يكون عاقلاً نظير قديس، كبت الرغبات والعزوف عن الشهوات (احمل وامتنع) آلام الجسد ليست بالآلام الحقيقية. فالامراض والشقاء والعذاب اشياء لا قيمة لها عند الرواقي، وما الوجود غير الله والرواقي يؤمن به بكل حرية وكل احترام، وصارت الرواقية عقيدة لها تعاليمها كما لها طقوسها. زهد الرواقي بالحياة الدنيا فأسدل لحيته وارتدى جبته، ثم امتد الامر بالرواقية الى التأثير على المسيحية واخيراً على الصوفية، ولكن الافلاطونية الجديدة كانت اشد قوة من غيرها من المذاهب في توجيه الصوفية.

ظهر (فلوطين) وقال بوحدانية الله فنحن لا نتصل به بالمعرفة بل بالعاطفة، والغاية القصوى هي الاتحاد مع الله، وكل شيء في هذا الوجود مقدس لانه صورة من صورة الله، وليس في مقدورنا الاتحاد معه والحياة معه الا بالذهول، ودبت الى الرواقية الاباطيل والخرافات عن طريق (جامليك) فادعى هو وتلاميذه المعجزات ولكن المسيحية ما لبثت ان ظهرت فخلعت على الشعور الانساني ورعاً حلواً، كانت شرقية في الاصل ثم ما لبثت ان اصبحت غربية، اذ اخذت بأسباب القانون الروماني، وما كان في وسعها الامتداد لولا هذا الاخذ الذي لا بد منه. ظهرت وفشت على يد الرهبان وراحت تعمل جاهدة ما استطاعت الى توحيد الآلهة وحملت في تضاعيفها فكرة حب الله والهيام به كما يحب الولد والده، ودعت كل فرد في هذا الوجود الى حب بعضهم بعضاً لان (الله محبة)، مثل هذه الاشياء لم يقل نظيرها اي انسان، لا سلطة للدولة على الناس الا فيما يتصل بحفظ النظام ولا مكان للطغاة ولا للمتكبرين، هذا فضلاً عن النعومة التي خصت بها فقد عبرت عن نفسها، بآله جميل عذب لم يلعن ولم يشتم، احبه كل من دان بعقيدته، وخانه واحد من حواريه، ومات وهو في غمرة آلام جسام.

***

التقت الثقافات في الشرق الاوسط القديم، وانبثق من هذا اللقاء عدة مدارس، واحدة في الاسكندرية واخرى في جنديسابور وثالثة في حران، اما مدرسة الاسكندرية فقد كانت متأثرة بالثقافة الاغريقية وخاصة الافلاطونية الجديدة، واما مدرسة جنديسابور فقد تأثرت بالثقافة الاغريقية عن طريق النساطرة واتصلت بالهند اتصالاً وثيقاً اذ كان فيها اساتذة يدرسون الفلسفة الهندية وتعاليم (الاهمسا) اي الوصول من الذات البشرية الى الله ورفع الانسان الى مقام الالوهية، واما مدرسة حران فقد كانت مدرسة وثنية اغريقية تسترت بستار الصابئة، وهكذا جاست خلال الجزيرة العربية قبل الاسلام عقائد فكرية ووثنية كان لها اثرها البعيد في تاريخ الثقافة الاسلامية، ويظهر ان الوازع الوثني في جزيرة العرب اخذ بالانحلال قبل ظهور النبي حتى الشعر العربي القديم لم يتحدث الينا عن الآلهة، ونحن نعلم ان الشعر القصصي اليوناني كان يستهل دائماً بتمجيد الآلهة، وكذلك الحال عند المصريين اذ كانوا يمجدون الآلهة والنيل معاً، حتى الشعر العبري والآري لم يخل من هذه الناحية، فلما ظهر الاسلام حمل الى العرب شيئاً جديداً يتفق مع عقليتهم ونفسيتهم. كان الوحي في العقيدة الاسلامية هو الركيزة التي يعتد بها، شأنه في ذلك شأن مختلف الشرائع السماوية، ولكن تطور العرب التاريخي ما لبث ان حمل المعتزلة على اعطاء الموحيات الدينية الغيبية مفاهيم عقلية منطقية، فأدخلوا منطق ارسطو على اللاهوت الاسلامي، كما ادخله من قبل «فيلون» على اللاهوت اليهودي والقديس «دانكسان» على اللاهوت المسيحي. وكانت قصارى همة المعتزلة البحث عن الله وكل خلاف اثارته لم يعدُ هذه الناحية فنستطيع القول ان المعتزلة وقفت الفكر على الله وصفاته، وظل الفكر العربي منذ اوائل القرن الثاني للهجرة وهو ينحو هذا المنحى، ولكن منطق ارسطو ظل يتمتع بحرمة كبرى وليس لدى جماعة المعتزلة وحدهم بل لدى خصومهم ايضاً، فقد اضطرت الاشعرية الى الاعتداد به للرد على المعتزلة وتفنيد طريقتها الكلامية، على اساس منطق ارسطو. ومنذ اليوم الذي مزجت فيه الفلسفة بالدين، خرجت الفلسفة من ملك الانسان على اعتبار انها من مبدعاته الخاصة

ذلك لان الفلسفة تخضع للمناقشة الحرة ، على حين ان الدين لا يمكن مناقشته مناقشة حرة لانه من وحي الله . وقد افضى هذا المزج بالفكر العربي الى الانقسام على نفسه ، فهنالك فريق وعلى رأسه (اخوان الصفا) يقول بضرورة مناقشة الدين على اساس فلسفي يؤلف بين التأييد والنقد ، وهناك فريق وعلى رأسه جماعة (الاشعرية) تحرم هذه الطريقة وتحظرها ، ولكن الفريق الاول كان يفتقر الى قوة مـادية تؤيد فكرته على حين ان الفريق الثاني كانت الدولة تؤازره وتأخـذ بيده في معظم الاحيان ان لم نقل في كل حين .

إن أخذ المعتزلة بمنطق ارسطو هو الذي فتح الباب لفلسفة ارسطو وكل ما قاله (اخوان الصفا) هو امتداد فكري لما قاله المعتزلة من قبل ، على مقياس أوسع من المقياس الذي ذهب اليه المعتزلة . فلما كان الله هو العقل عند ارسطو ، عـالج (اخوان الصفا) كل ما اخذوا بأسبابه على هذا الاسـاس حتى اعتبروا الديانة « دنست بالجهالات » ولا تصلح لهـا الا الفلسفة ، ولكن ما ذهب اليه (اخوان الصفا) ما لبث ان نوهض بشـدة لا لين معها ، فقد ظهرت فرقة حاولت انقـاذ الوجدانية الدينية من منطق ارسطو الحسي فعاذت بـ (افلاطون) ولجأت اليه ، وبذلك بدأ النزاع بين حسية (ارسطو) وتأملية (افلاطون) ، كان لارسطو انصاره وهم اصحاب الفرق الاسلامية ولم يأخذوا الا بمنطقه ، لا بل ان فلسفة ارسطو لم تقف على قدمها مستقلة لان آراء ارسطو كانت تتعارض والدين ، على حين ان افلاطون كان اقرب الى الدين من ارسطو فقـد رحب به الدين لما خلع عليه من صفـات تأملية ، وصفات الايمان الغيبي المثـالي تتجاوب مع صفات الايمان الديني الغيبي ، ولما بدأت فلسفة ارسطو تتحرر من الطريقة الكلامية كانت تحـاول التخلص من الدين في نفس الوقت .

تابعت الافلاطونية طريقها لما لاقته من تقارب مع العقيدة الاسلامية ، وحاول (الفارابي) الجمع بينها وبين فلسفة (ارسطو) بعد عجزه عن جعل الافلاطونية فلسفة قائمة بذاتها مستقلة بنفسها ولكن (ابن سينا) وحده هو الذي تمكن من تحقيق هذه الغاية اذ تابعها في مجراها التأملي الوجداني وما لبث هذا المجرى ان انطلق بنفسه الى خارج نطاق المحسوس محاولاً الفرار من الدنيا على اعتبار انها ظاهرة محسوسة – الى الآخرة – على اعتبار فكرة الآخرة ظاهرة تأملية تضم بين تضاعيفها مثالية لا تعرفها مادية الارض .

***

يقول « لوكلرك » « ان الدور العربي في تاريخ المعرفة له خطره وفائدته الكبرى ، هذا فضلاً عن غنـاه بالوثائق المعروفة في العصر الحـاضر ، والذي يجعل لهذا الدور طـابعاً خاصاً هو عمق ابداعه وغرابة ظهوره ، فقد تابع تكامل المعرفة ورقيها عند الامم المختلفة التي شغلت المسرح بالتتابع ، كان هذا الشعب يعيش في الجزيرة العربية المحمية بالرمال ، الحافلة بالحروب ، الزاخرة بالمغـامرات ، شعب راع ذكي رائع الفصـاحة والشعر ، يمتاز بالفهم ويعوزه التحليل ، يودع الذاكرة اشعاره وحوادث ايامه العظيمة ، ولم يعرف العناية بتحليل الاشياء الا في حقبة متأخرة كان من عبدة الاوثان ثم آمن بوحدانية الله ايماناً سامياً نقياً ، وتساءل « براون » ماذا تكون « نتـائج الفتح العربي من قبل شعب امتد سلطانه من الاطلسي الى الهند ، ودفع المدنية التي كانت راقدة في احضان القسطنطينية الضعيفة المرتبكة ، لقد سقطت المعرفة اليونانية في يد العرب هذه المعرفة التي لم يكن لها وارث ، واصبحت ارث هذا الشعب المؤمـن الجديد ، وهكذا حدثت المعجزة ، جعل الشعب الفاتح من المسيحيين اساتذته ، وانكب على علومهم بلهفة وسرعة فهم عجيب ، مظهراً قابلية كان يخيل الى العالم انها غريبة عن مثله ، فسبق اساتذته » .

هذا ملخص مـا قاله « لوكلرك » و « براون » عن العرب ، ولا ريب في ان هذه الميزات يتسم بهـا شعب جديد عالمه البادية والناقة ، يحضن الحضـارات التي تتابعت قبله على مسرح الوجود ، ثم يؤدي رسالته التاريخية ، لهو شعب جدير بالحياة وابداع مركزه تحت الشمس . كان العرب اداة وصل بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة ، واللـغة العربية لغة الفكر في العالم الاسلامي كما كان حال اللغة اللاتينية فيـما مضى ، ويرى « براون » ويؤيده « لوكلرك » ان ما ترجمه العرب عن اليونانية يفوق امانة مـا ترجم عن هذه اللغة الى اللاتينية ، وقد بلغت عناية العرب بتعلم لغة الاغريق ان ذهبوا الى بلادهم وحفظوا اشعارهم ، ويروي « يوسف الطبيب » انه شاهد رجلاً (حنين بن اسحاق) اسدل لحية كثة واطلق شـارباً غير منظم يتلو اشـعار (هوميروس) ، فسأله لماذا تقرأ الشعر ؟ . . . فأجاب : لانه اخذ على نفسه عهداً الا يغادر بلاد الاغريق الا بعد اتقان اللغة اليونانيـة . فالعرب عرفوا اذاً (هوميروس) ، حتى ان (ابن القفطي) في كتابه اخبار الحكماء عده من الحكماء ،

ولكن الذين عرفوه هم الفلاسفة والعلماء والاطباء، فالناحية التي تهمهم في اول الامر، هي اللغة لا الجمال الفني ولا الخيال الشعري.

***

وهكذا تناهت الى العرب حضارات عريقة في القدم، وقد كان الاسلام من المرونة بحيث جارى هذه الحضارات، كان العصر عصراً غيبياً ولا بد لكل شريعة روحية تظهر للوجود من حياة روحية، تلك الحياة التي لا تقنع بالاحكام المقررة والمبادىء المرصودة، تلك الحياة التي لا تنشد الشيء بل ما وراء الشيء، فانبثقت انوار الصوفية كمثل حي للحياة الروحية الاسلامية.

كان الصوفيون احرص ما يكونون على دعم افكارهم بما جاء في القرآن والحديث، فهم يعتدون بآيات نظير «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» و«نحن اقرب اليه من حبل الوريد» و«اذكر ربك في نفسك» و«فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» و«فأينما تولوا فثم وجه الله» و«هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» واحاديث قدسية وغير قدسية مثل «كنت كنزاً مخفياً فأحببت ان اعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني» و«من عرف نفسه فقد عرف ربه» و«لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يسعى بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل وبي يبطش وبي يمشي» وفي حديث «ان من عباد الله لاناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل، قال رجل فمن هم وما اعمالهم لعلنا نحبهم؟ ... قال الرسول: قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها بينهم، والله ان وجوههم لنور، وانهم لعلى منابر من نور، لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس».

قالوا ثم قرأ:

«الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...» وهكذا استمد التصوف عناصر قوته من الاسلام نفسه، فقد يفضي التصوف بصاحبه الى الاضطهاد او السجن او الموت، ولكن هذا العسف لم يقع الا في عصور انحطاط حرية الفكر في الاسلام وبالرغم من كل ما حاق بالمتصوفة من شدة لا لين معها وقسوة لا هوادة فيها، فقد ازدهر التصوف وشع، وصارت قرابين التصوف مثل فدية في نظر العالم الاسلامي تحف بها مناسك وتسير في ركابها الامجاد، أصبح لكل صوفي مزاره الفخم ووقفه الضخم، وهكذا عاش الدراويش ... كان التصوف مثالية ترف على عالم اللانهايات، عمره ما هو بالعمر المتعارف عليه، سألوا البسطامي عن سنه فقال: «اربع سنوات» فقالوا: وكيف كان ذلك؟ ...» فأجاب: «حجبت عن الله سبحانه وتعالى سبعين سنة ولم أره الا في الأربع السنوات الاخيرة، وعليه فالسبعون الاولى ليست من عمري». هذا هو الصوفي الحقيقي لا يشعر بوجوده الا في عالم التملي والتجلي، وكان الصوفي يوزع ثروته ولا يبقى على شيء من متاع الدنيا ذلك لأن الزهد شيء أصيل في الصوفية، وصف المتصوفة الحسن البصري بقوله: «ادركت من صدر هذه الامة قوماً كانوا اذا جنهم الليل، فقيام على اطرافهم يفترشون خدودهم، تجري دموعهم على خدودهم، ويناجون مولاهم في فكاك رقابهم».

هذا هو الصوفي الزاهد، الذي يصل به الامر كما يقول ذو النون المصري: «ويغدو الاتصال في مراحل التصوف العليا صامتاً»، وليس للزهد منزلة عند المتصوفة، قال القشيري في رسالته: «ان رجلاً سأل البسطامي عن الزهد، فقال: ليس للزهد منزلة، فقال السائل لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة ايام في الزهد، فلما كان اليوم الرابع خرجت منه، اليوم الاول زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، وفي اليوم الثالث زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق سوى الله، فهمت، فسمعت هاتفاً يقول: يا أبا يزيد تقوى معنا؟ ... فقلت: هذا الذي أريد. فسمعت قائلاً يقول: وجدت وجدت ...»

والحب الصافي، هو سبيل الصوفي، قال ذو النون المصري: «ان تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله وترفض ما يشغلك» والصوفي يرحب بالنكبات اكثر من النعم، ذلك لأن النكبات في عرفه تطهر النفس، وذل النفس من شروط التصوف الاساسية، كل هذه الافكار المثالية اوحت الى شعراء الصوفية اروع التحف الفنية، وقد تجلى ذلك كله لدى شعراء العرب والفرس والترك. اما العرب فقد انجبوا امثال: (رابعة العدوية والحلاج، والسهروردي، والشيخ القتيل، والشيخ الاكبر، وابن الفارض). اما الفرس فقد انجبوا امثال: (ابي الخير الخراساني، والانصاري، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي) اما الترك فقد انجبوا أمثال: (احمد اليسوي، وشيخي، وحمدي، ويحيى بك، ورومي البغدادي).

دمشق — نسيب الاختيار

منزلة الشعر بين الفنون

بقلم ابرهيم العريض



ونحن اذا جاوزنا اللفظ الى المعنى . فان المعاني الشعرية ليس من السهل تحليلها الى عناصرها الاولى . فاذا حاولنا ذلك فعلى شريطة ألا نفهم منه ان هذه المعاني يمكن ان تتمثل صورتها في الاذهان بدون الفاظها . ونحن اذا قلنا المعاني الشعرية لم نعن سوى هذا الاثر الفني الناجم عن نظرة الشاعر الى الحياة وموقفه منها – في الفاظه الخاصة . وقد ذهب النقاد منذ القديم مذاهب مختلفة – بين مشرّق ومغرّب – في تعرف هذه العناصر التي تدخل في تكوين الشعر وتعريفها . ولم يتفق لهم رأي حتى الآن على طول الاخذ والرد . وهي في الحقيقة لا تتجاوز عناصر ثلاثة . (١) الموسيقى (٢) العاطفة (٣) الخيال . ويمكن اضافة عنصر رابع هو اللون .

على ان هذه العناصر – اذا وجدت معاً – لا تستقل كل منها بالعمل على اثبات وجودها منفردة . كما ان وجود احدها لا يستلزم وجود الآخر . وانما تتاوج في اسلوب الشاعر – حيث وجدت – كما تتاوج الحياة نفسها في الجسم الحي . فكما ان لباس العافية يسبغ على هذا الجسم من صفات الحركة والقوة والاشراق ما يجعله خليقا بالفتنة . فكذلك يتم تبلور هذه العناصر بانصهارها في هذا الاسلوب – على نسب خاصة – لتصبح علماً على الشاعر ومظهراً لشخصيته وجزءاً لا يتجزأ من آية فتونة .

واذا قلنا انها تتاوج جميعها متضافرة في اسلوب الشاعر لم يستلزم قولنا هذا وجودها دائماً متضافرة في آن . فالجسم الحي قد لا تراه متحركاً وان كانت الحركة اكبر دليل على الحياة (الموسيقى) . او قد لا يتوفر فيه النشاط لتوجيه هذه الحركه وتنظيمها للطارئة وان كان مستوفزاً لها بفضل حيويته (الخيال) . او قد لا ينتظم بهذا الاشراق النفسي في محيط دائرته اذ كان الاشراق لا يعدو كونه انعكاس ما في مرآة القلب من صفاء واشعاع (العاطفة) . واخيراً فان الجسم قد لا تراه العيون وردي البشرة مثلاً وان كان متوفر النشاط مشرق القسمات . فهي انما تكون وشاح الصحة الخارجي في شباب الاجسام (اللون) .

ومع ذلك فان الحركة والقوة والاشراق (مضافاً اليها الحمرة) هي صفات يجوز ان تتصف بها – مجتمعة – الاجسام المستكملة لاسباب صحتها . فتتسم في مظهرها الخارجي – على تنوع هذا المظهر – بما ندعوه بالجمال . تلك الكلمة الغامضة المدلول التي ان دلت على شيء فعلى صفة مشتركة نحس بها في هذه الاجسام دون ان نستطيع لها تحديداً . على حد قول اسحق الموصلي في ظروف لها دلالتها « تحيط بها المعرفة ولا تحدها الصفة » .

وتسائل الشعر مع الاجسام الحية في هذه الصفة هو مصدر ما نسمع من قولهم ان الشعر يبعث في النفوس هزة . فهي لو تأملنا اشبه ما تكون بالهزة التي نشعر بها – في حال الصحة – امام الجسم الجميل .

فاذا لم يتم هذا الانصهار بحيث يستقل هذا العنصر او ذاك وحده باسلوب الشاعر على حساب العناصر الباقية – وسنتناول هذا بالتفصيل في الفقرات التالية – كان من جراء ذلك هذا النقص الحيوي الذي نلمس اثره في الكثرة الغالبة من نتاج العصور مما تكتظ به بطون الكتب والمجلات في كل عهد ومكان . والتي لا تبعث حتى في ناظميها هذه الهزة لانها تعدم صفة « الجمال » بهذا

المعنى المفهوم .

والآن فلنتناول كلاً من هذه العناصر الاربعة على انفراد بادئين بالموسيقى .

لقد سبق لنا ان لاحظنا كيف ان الموسيقى اللفظية تسبغ على الشعر جواً مشبعاً بالفتون وبالاخص اذا جاءت اوزان القريض التي تنهض بهذه الالفاظ ملائمة للون العاطفة التي تحاول بثها والرمز اليها بوسائلها المختلفة فكلما تمّ التجاوب بينهما ازدادت فتوناً . وقد وضعنا الموسيقى في مقدمة العناصر التي تدخل في تكوين الشعر لان الاسلوب الشعري لا غناء له عنها بحال من الاحوال . وبدونها يستحيل ان يكون الشعر شعراً سواء جاء منظوماً ام منثوراً . وان اقتران الالفاظ بالنظم غالباً في شعر كافة الامم لدليل في ذاته على هذه المنزلة التي تحتلها الموسيقى ، فلولاها ما استقامت الاوزان . وأية غرابة في ان تشايع الموسيقى لغة الشعر ما دام هو قد نشأ في حضانة الغناء والرقص منذ قديم الزمان .

واذا استأثر الشعر – في حال كونه منظوماً – بالموسيقى الناطقة التي تقترن دائماً بالغناء ، فانه لا بد – اذا جاء منثوراً – ان يحفل بالموسيقى الصامتة التي تشع بها الالفاظ . ويحسن بنا هنا ان نقارن بين حالتيه – نظماً ونثراً – في قطعة للرافعي واخرى للحوماني في موضوع يكاد يكون متشابهاً . ففي كلتيهما موسيقى ناعمة لا تبلى جدتها على مضي الايام .

قال صاحب « وحي القلم » في الربيع .

خرجت اشهد الطبيعة كيف تصبح كالمعشوق الجميل لا يقدّم لعاشقه الا اسباب حبه

ف . . ملاحت لي الازهار كأنها ألفاظ حبّ رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات

والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء فيه تعبير من لابسه

وكل زهرة كابتسامة تحتها اسرار وامرار من معاني القلب المعقدة

اهي لغة الضوء الملون من الشمس ذات الالوان السبعة .

ام لغة الضوء الملون من الخد والشفة والصدر والنحر والديباج والحلي .

وقال صاحب « حواء » .

يتصباني من الروض الى … وجهك الفاتن ارض وسماء
الثرى عين وخد وفم … والسما نور وعطر وثناء
يستظل الزهر افياء المنى … والمنى تطفى عليها الخيلاء
فتمج الشمس في اعطافها … خمرة نكرع منها ما نشاء
يتصباني الى عينيك من … روضي غصن وعصفور وماء
يتغنين فيملأن فمي … طرباً نغرف منها الندماء
يا لها قيثارة ملء يدي … من مآقيها دموع ودماء
خفقت بين يديها كبدي … فجثت بين يديّ الشعراء

فهاتان قطعتان لا نزعم بانهما لا تمتازان بغير الموسيقى . وانما عنصر الموسيقى هو الغالب عليهما – كما ترى – حتى في الالفاظ . اما ما فيها من مقومات الشعر الاخرى فليس هذا محل شرحها الآن .

على ان الموسيقى وان كان لا بد للشعر منها – كما لا بد من الحركة للحياة – فانها لا تكون على درجة واحدة من السوق وهذا من البداهة بمكان . فبينا تقتصر بعض القطع على مجرد اقامة الوزن وذلك في اضعف احوالها . نجد قطعاً اخرى – كالتي مرت بنا – تتغلغل فيها الموسيقى الى الالفاظ عيناً . ومنها تتناوح – كموج البحر في مده وجزره على الرمال – مع كل من وزن القطعة وقافيتها . بحيث تتفتح المناوحة عن معنى من الطرب لا يزول .

انظر مثلاً الى الفارق في النغم الموسيقي بين قول الزهاوي .

سئمت كل قديم … عرفته في حياتي
ان كان عندك شيء … من الجديد فهات

وبين قول ميخائيل نعيمه .

ايه نفسي ! انت لحن … فيّ قد رنّ صداه
وقعتك يد استا … ذ خفيّ لا اراه
انت جزء من الـه

مع ان القطعتين على وزن قصير .

وشأنها في هذا كشأن آلات الطرب تماماً . من الطبل الذي يقتصر في ايقاعه على تكرير الضربات مثلاً . الى القيثارة التي تكاد تذوب في الحانها لكل هزة تسجلها الاوتار . وبين هاتين انواع اخرى تتدرج من الطارة في بساطتها والصنج . الى الكمنجة والعود . الى الناي والمزمار . الى البيانو والقانون . حتى نصل الى الارغن – في جمال تعقيده – على رأس القائمة . وهل الجوقة الموسيقية الا جماع آلات العزف يحشرها الموسيقي في انغام رائعة كأنما هو مكلف ان يخاطب – بلغتها – الارواح .

والموسيقى في الشعر – على هذا – قد تقترن بالعاطفة وحدها . او تقترن بالعاطفة والخيال معاً ، او تستقل دونهما بالاصالة في التعبير . والشعر في الحالة الاخيرة لا يصلح طبعاً لغير الغناء . ومن ثم يتسع حتى يشمل الشعبيات . فأما اقترانها بالعاطفة وحدها فنجد مثاله في قول جرير في القدماء .

ان الذين غدوا بلبك غادروا … وشلاً بعينك ، ما يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي … ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

او قول حلمي اللحام في المعاصرين .

ليت شعري ماذا تتم هذي الـ … طير فوق الربى صباح مساء ؟

احباها الربيع احلى معانيه ٭ فراحت تعيدها اصداء !

واما اقترانها بالعاطفة والخيال معاً ففي مثل قول قيس بن الملوح .

بربك هل ضممت اليك ليلى قبيل الصبح ، او قبلت فاها ؟
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الاقحوانة في نداها ؟

او قول بشارة في المحدثين .

سألتني – وكفها فوق صدري – عمرك الله ! هل تحب الشآما ؟
قلت : حبا ذق الحمامة للفرخ ، فلم لا نكون ذاك الحماما !

ولا بد لنا هنا من التأكيد مرة ثانيه باننا اذا قلنا ان الموسيقى تقترن بهذا العنصر او ذاك فلا نعني الا انها تطغى بعنصرها على تلك العناصر . والا فلا يمكن ان ينهض شعر بدون مقوماته وفي مقدمتها الموسيقى كما ولا بد من وضح ذلك فيما قدمنا من بيان .

واما استقلال الموسيقى دون العاطفة والخيال بالاصالة في التعبير ففي مثل قول علي بن جبلة .

انما الدنيا ابو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى ابو دلف ولت الدنيا على اثره

او قول جبران خليل جبران .

هل تخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور
فتتبعت السواقي وتسلقت الصخور
وتحممت بعطر وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثر

فالموسيقى وحدها هي التي دفعت جبران على ان يقول « تحممت » والا فالصحيح هو « استحممت » (او « استحميت » اذا اردنا اقامة الوزن) . ولا يفوتنا هنا ملاحظة الاختلاف في « اللون » الموسيقي بين القطعتين . فهو الذي يسبغ على الاولى مسحة الجد والكآبة . بينما تتخايل الاخرى في وشاح من حبور .

اما اذا عدم الشعر موسيقاه – وهذا يقع في بعض الاحوال – فان القطعة الناشئة عنه لا تكون الا على غرار قول ابي العلاء .

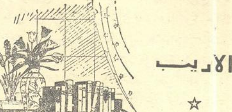
سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد ، كم هو عائش من دهره ؟
فأجابها : مائة ! . . ليأخذدرهما واتي الحمام وليدها في شهره

او قول جبران .

قتل امرىء في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

فالذي يبرر بقاء مثل هاتين القطعتين على ألسن الناس هو هنا شيء غير الموسيقى . ولذلك لا تطيب تلاوتهما الا بالوعي الكامل في هدأة المعقول .

البحرين ابرهيم العريض



الاديب

☆

– لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)

– تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة لبنانية
في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى
في الخارج : ١٤ جنيهاً مصرياً او استرلينياً او ٦٠ دولاراً كحد أعلى

☆

– المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

●

– للاعلان تراجع ادارة المجلة

○

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير اديب

☆

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب – صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت – لبنان

انت !!

☆

حقيرة انتِ ...

خلعتُ عليكِ المجد

فكنتِ

وأشعَ الغرور

من مقلتيك

ومن كل عبق فاح منك

ايها الصنم الذي خلَقت

خسئتَ الرفعة

فلست مني

من بقايا الشجون

وثمالة الكأس

وأتراح دنيَ

جبلتُ الوهم

ظمآن

وقلتُ له كنْ

فكنتِ

من انتِ ؟..

بربك ...

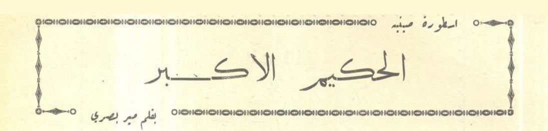
من انتِ !!

وقف الصدى عن ترجيع

صلاتي

فكنتِ

البير اديب



بقلم صبر بصري

☆

عاش في بعض أقاليم الصين النائية قبل مئات الأعوام تاجر واسع الثراء، حسن السيرة، طيب السريرة، حالفه التوفيق في سعيه فأحرز مالاً وأثل عقاراً وأصاب جاهاً، وهو لم يكد يشرف على الاربعين من عمره . وفي ذات صباح خاطب نفسه قائلاً : « ان التجار كثيرة وطلبة العلم قلة ، لقد مارست مهنتي الشريفة نحواً من عشرين سنة ، فخدمت نفسي وخدمت بلدي . جلبت من أقاصي الاقطار السلع التي تغني وتبهج ، واشتريت من الفلاحين الأرز والشاي فعوضتهم الاكسية المطرزة وآنية الفخار ، وعاملت الرجال بالصدق والاخلاص ، ولم أبخل على الفقراء والزهاد بالهبات السخية . والآن حسبي ما فعلت ، فلأطلب العلم لعلي أصيب حكمة فأفيد البلاد والعباد ! »

ولم تخطر هذه الفكرة على باله حتى قرن القول بالعمل ، فقام من فوره فصفى تجارته وعتق عبيده ورتب شؤونه ، ثم لازم عالم اقليمه منقطعاً الى الدرس والتحصيل وقد عانى المشاق في تفهم العلوم وادراك حقائق الفلسفة ، فانه لم يكن صغير السن . لكنه تخذ عن النباهة وصفاء الذهن بديلاً من الجلد والسعي المتصل ليل نهار . وبعد أعوام طويلة قال له استاذه : « لقد قرأت كل الاسفار التي جمعتها ، ووعيت العلم الذي في صدري برمته ، فحسبك ما كسبت ! » فقال الطالب الكهل : « انني لا أزال جاهلاً ولم انهل من معين الحكمة الا وشلاً . فلأمضِ الى الحكيم العاصمة الذي ملأ صيته الآفاق ، علني اروي غلتي من فيض علمه . »

وشدّ صاحبنا الرحال الى العاصمة العظمى وجلس عند قدمي الحكيم الذي جلل رأسه وقار الشيخوخة ، فدرس عليه علوم الاوائل والاواخر ، واقتنى منه الحكمة التي ضاقت عنها الكتب والطوامير . ومضت سنون طويلة ، ومرض الفيلسوف الهرم مرضه الذي يورده موارد الحمام ، فوضع كلتا يديه على رأس تلميذه الامين وقال له : « انك قد اتقنت علوم الاولين والآخرين وادركت حكمة الارض والسماء ، فابذل مما وهبت وأفد كما استفدت ! »

ولفظ العلامة الفاني آخر انفاسه ، فجاء الحكماء والتلامذة وطلبة العلم ومثلوا بين يدي صاحبنا الذي وقف الآن على أبواب المشيب وقدموا له آيات التعظيم والاكرام ، وقالوا : « انك الآن حكيم الصين الأوحد ، ونحن عشاق الحكمة وطلاب المعرفة ، فأفدنا مما علمت وكن لنا استاذاً ومرشداً . »

فقال : « لقد درست كثيراً وتضلعت من العلوم والفنون والفلسفات . لكنني لم أتمرس بالحياة ، لم أزر الامصار ولم احادث الرجال ، فعلمي ناقص وجهلي عظيم . دعوني أخرج الى الآفاق وأجتمع بالناس لآخذ

عنهم طرائق الحياة والعمل وأطلع على شؤونهم ومذاهبهم . »

التفع حكيمنا بردائه ، ووضع كشكوله على كتفه ، وشد قبضة كفه على عصا متينة طويلة ، وخرج الى الفيافي والجبال يضرب في البلاد ويجوس خلال القرى والديار . دخل على الامراء والقادة في قصورهم فباحثهم في السياسة والادارة والحرب ، وحضر مجالس العلماء والفلاسفة فاستمع الى كلامهم ومال بأذنيه الى جدالهم ونقاشهم . واجتمع بالاثرياء واهل الترف في مقاصفهم ونواديهم فشهد متعهم ولذاذاتهم وولج صوامع الزهاد وخلوات المتبتلين فتلقى عنهم دروس القناعة والتقشف والتأملات الروحية . وعرج على اكواخ الفقراء وخصاص العمال والكادحين فشاطرهم كدّهم وشظف عيشهم وبثوه همومهم وآمالهم . وارتاد القرى والمزارع القصيّة ، فعمل مع الفلاحين في وهج القيظ وافترش أكداس القش في ليالي الزمهرير . ووقف على قارعة الطريق يكلّم الصبيان الاحداث والفتيات الغريرات ويشاركهم في لهوهم وهراء قولهم . وتنكب عن الجدد فمر بالمغاور ومكامن اللصوص ، وجلس مع السرّاق والقتلة مصغياً الى آرائهم واخبارهم .

وتصرّمت الاعوام وحكيمنا لا يمل التجوال ولا يكل من الترحال . بلي الحذاء الذي انتعله في قدميه ، وحال رداؤه الذي اتزر به أسمالا ، وتشققت العصا التي توكأ عليها فوق الصخور والرمال . وقد وخط الشيب لمته وحنا كاهله وقر السنين ، فعاد الى العاصمة يسبقه صيته الطائر . وخرج العلماء وأرباب الحكمة يستقبلونه بالاكبار والتكريم ، فلما نضا عنه غبار الطريق ، سجدوا له وقالوا : « ايها الاستاذ الجليل ! ها أنت قد جبت الاقطار واجتمعت بالعظماء والفقراء ، وقرنت بالعلم والحكمة سعة الاطلاع ومراس الحياة ، فأفض علينا من غمر معارفك واحبنا بعض ما أوتيت من علم غزير ! » .

فهز الحكيم رأسه ببطء وتؤدة وقال : « لقد افنيت عمري حقاً في طلب العلم والوقوف على احوال العالم والناس ، لكنني لم ادقق النظر في مشاهد الطبيعة وحياة الحيوان والنبات ، وان هذا لو علمتم لجهل فظيع ! فذروني اذهب الى الغابات والمغاور المنعزلة ، أرقب الطبيعة في مواطنها البكر واشهد الخليقة في مسالكها ومنازلها . »

وخرج الحكيم الشيخ الى الاماكن البعيدة عن مساكن البشر ، فتملى من مناظر الطبيعة الساحرة . ورأى العناكب تنسج بيوتها الواهية ، والنمل يشيد قراه الشاهقة المحكمة البنيان . وشاهد الظباء تشرد الى كناسها ، وحمر الوحش يلتئم شملها عند الغدير . واطل من خلال الاشجار الملتفة الغصون على السباع الكاسرة تفتك بفرائسها والطيور الجارحة تنقض على ضحاياها . وسمع في الليل صوت البوم ينعق في الخرائب ، واصغى عند الفجر الى سجع الحمائم في الخمائل الناضرة . وكتم انفاسه ينظر الى الافاعي تشق طريقها المتلوّي بين الرمال ، وأكب على شاطىء البحيرة يرقب الاسماك صاعدات هابطات تحت صفحة المياه النقية الشفافة . .

وكرّت الاعوام ، وعاد الحكيم الشيخ الى موطن الناس الذين ارتقبوا أوبته بفارغ الصبر . فأتاه أفذاذ العلم وطلاب المعرفة وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وأبدوا له آيات التبجيل والاكرام ، وقالوا بصوت واحد : « لقد نقعت غلة نفسك الظامئة الى الحقيقة وبلغت الغاية في العلم والحكمة ، فافضض لنا مكنونات صدرك وعلمنا بعض ما علمت . »

فقال : « لقد نلتُ العلم حقاً ، لكنني لم أدرك الحقيقة التي انشدها ، وهي لا تبلغ بالمعرفة وحدها دون التأمل والاستغراق . فدعوني أعتكف في بعض الخلوات ، افكر وأتأمل في سكون ، لعلّي اجمع الى الحكمة التي اقتنيتها صفاء الروح الذي يكشف النقاب عن الحقيقة الأزلية . »

ومضى الحكيم يشق طريقه الى البرية معتزلاً ضوضاء الحياة وصخب الناس . انزوى في صومعته واسترسل مع التأمل وأطلق العنان لروحه فاطمأن ونسي الناس . ومرت الاعوام ، فخرج العلماء وعشاق الحكمة يبحثون عن الحكيم الاعظم الذي بارحهم ولم يرجع . ووجدوه بعد لأيٍ ، وقد بلغ من العمر عتياً ، مستغرقاً في تأملات مبهمة .

قبّلوا الارض بين يديه وقالوا : « ايها الحكيم الاكبر ! أطلّ علينا من العالم العلوي الذي تسبح فيه وأفدنا من علمك لنفهم ونتفقه . لقد أنظرتنا الى هذه الساعة منذ عشرات السنين ، فعلّمنا الحكمة . »

وأفاق الشيخ الهرم من استغراقه ونظر الى مخاطبيه بعينيه الزائغتين ، الغائرتين في محجريهما ، وأشار بطرف اصبعه الى الافق البعيد حيث التقت الارض بالسماء . وسمعه التلامذة المتلهفون يتمتم قائلاً : « ان الحكمة الحقيقية هي التي تشعر بها النفوس ولا تنطق بها الشفاه ! » :

بغداد — مير بصري

حديث في ليل

●

جلست قربي .. وثغر الليل بالآمـال يشدو ..
وعلى الربوة .. يرعى طيفنـا زهرة وورد ...
زمق الافـق وفي الاهداب اشواق ووجـد
فلعل القمر الساحر .. من مغنـاه يبدو ..

***

ومضت تضحك نشوى .. بأغاريد الشباب ..
وابتسـام الأمل النـاعم في شدو الروابي
سألتني .. ورنت تطلب عيناهـا جوابي ..
همسات الليل هل تسمعها تسأل مـا بي ؟
آه لو أعلم من تهوى من الغيد الكعـاب
انت يا شاعر سكران بأحـلام عذاب
وبعينيك الى عهد الصبـا .. كره وزهد
لم يعد في لحن قيثـارك للسمراء ود
شغلتك اليوم عن آمالنـا دعد وهند
وشباب العمر يمضي .. وركاب الدهر يعدو

***

قلت كالحلم يا سمراء لو تدرين سري ..
أنا اهواك ومـن عينيك استلهم شعري
ليس في دنيـاي ألاك وافني فيك عمري
فاضحكي للكون ان الكون كالمذعور يجري
فلمـاذا نصرف العمر بجوب ليس تغري ؟
حرت يا اختـاه بالأمس .. فكيف اليوم ادري ؟
فدنت كالطفل ان اضنـاه في ملهاه جهد
تسند الرأس الى صدري وفي الفردوس نغدو
ومضينـا .. زمق الافق وفي الاجفان سهد
فإذا بالقمر النشوان من مغنـاه يبدو ..

دمشق عبد الكريم السمان

التأليف الكبير

ترجمه عن الايطالية : مصطفى آل عيال
ليسانسيه في الآداب

☆

الفصل السادس — المونيزم او المبدأ الموحد
Il Monismo

لنقترب اكثر فأكثر من المسألة التي نريد حلها ، وكان لا بد من تلك المحادثات لنصطحبكم الى هنا . فلاحظوا الطريقة التي اسلكها لكي ابين لكم عن فكري واشرحه .

اني اتقدم حسب شكل حلزوني تضيق دائرته تدريجياً . واذا مررت ثانية بنظام الافكار هذه ألمس نصف القطر ، هذا الذي يبتدىء من مركز الدائرة ، في مكان يقترب رويداً رويداً الى نقطة المركز ذاتها . واني لقائد فكركم نحو هذا المركز . وفي هذا العرض تروني ابتدىء من الخارج واسير نحو الداخل ، من المادة التي هي حقيقة حواسكم الى الروح التي تحتوي على حقيقة اصح واسمى . انتقل بكم من القشور الى الالب ، من تعدد الظواهر الى المبدأ الواحد الذي يسندها . ولهذا دعيت هذا البحث والاستشفاف : بالتأليف الكبير .

انا في القطب الثاني لهذا الكون . في الطرف المضاد للذي انتم فيه فيا ايها المنطقيون انتم تحليليون . اما نحن فحدس (تأمل ورؤية) وتأليف* . ولكني الآن انحدر الى علمكم المنطقي التحليلي واتخذه كمركز للشروع في الامر واسير بكم الى التأليف كمركز للوصول . ابتدىء من الشكل لاشرح لكم الدفعة الخفاقة المظلمة والمحرك الذي يبث الروح فيها ، الغارق بشدة في اعماق الغموض .

اني اتغلغل واوجز ، واضم في مبدأ موحد مطلق ، التفاصيل العظيمة لدينا الظواهر الاجتماعية ، الواسعة جداً لو ضربناها بالزمان والمكان اللذين لا حد لهما ؛ واضع في سمت المفاعيل المتعددة التي استخلص العلم منها ، بعد الكد والعناء ، بعض القوانين التي لو سيرت في سمت معكوسة لقادتنا الى المبدأ الموحد .

وهذا العالم الذي يلوح لكم بان الفوضى تعج في ارجائه عجاً سأجعل منه لعقولكم متعضياً* تاماً كاملاً . ان حالة هذا العالم المركب التي تقض مضجعكم سأحولها الى فكرة مركزية واحدة بسيطة ، الى قانون واحد يرتكز عليه كل شيء .

بوسعكم ان تسموا هذا مونيزم (او المبدأ الموحد) ولكن انتبهوا الى الفكرة اكثر من انتباهكم الى الكلمات .

ظن العلم في بعض الاوقات انه اكتشف وخلق فكرة جديدة وذلك لأنه اول من سبق الى استعمال او اكتشاف كلمة ما . ودونكم هذه الفكرة : كما انتقلتم من عبادة آلهة متعددة الى عبادة آله واحد تنتقلون الآن الى المونيزم اعني الى فكرة الوهية فيها الموجد والموجود .

اني اشعر بهذا التأليف العلوي وانا اريد ان اسير بكم اليه من خلال درس عمل الحركة العضوية لهذا العالم . وهكذا سيتراءى لكم البحث كتطور افكار وصعود متتابع بتقريبات تدريجية متلاحقة . وربما لاح لكم ايضاً كرحلة للنفس وهو في الحقيقة الرحلة الكبرى للروح التي تعود الى وحدتها والمخلوق العائد بالحنين الى خالقه .

كل افق جديد والذي اظهره لكم العلم والعقل لم يكن غير كوة فتحت على افق ابعد وهكذا دواليك بدون نهاية . اما انا فسأدلكم على مرحلة هي الاخيرة وهي في اعماقكم ايضاً حيث تكمن الروح . دعونا نصعد من دائرة المفعولية ومتفرعاتها الاخيرة متطورين من محيط الدائرة الى المركز ، الى جذع العلة قبل ان تتعدد في تلك التفرعات .

ان الحقيقة في عالمكم متجزئة في اوعية المكان والزمان . والوحدة متناثرة في الجزئيات . فترى « ما لا يحد »* يتكسر ويتقسم ويتألف في المحدود ، و« الابدي » في السريع العطب ، و« المطلق » في النسبي .

اما نحن فسنسير على هذه الطريق بشكل مغاير لهذا الانحدار وسنلتقي « باللامحدود » الذي لن يقدمه لكم العقل فليس بوسع التحليل الانساني ان يخرج من دائرة المفعولية في المكان والزمان .

* تأليف Analisi —Pietro Ubaldi — La Grande Sintesi
* متعضي Organismo
* l'infinito

هدف هذه الرحلة هو بأن يعطى للانسان وجدان جديد عالمي. وجدان يشعره بأنه ليس هو فقط كائن خالد لا يفنى وعضو في انسانية تشمل كل كائن حي، ولكنه يمثل قوة ما، وعليه واجب كبير في تسيير سكان (دفة) المركب لهذا العالم الحي ذاته. انتم تحيون لتحصلوا على وجدان اكثر اتساعاً. الانسان ملك الحياة على هذه الكرة الارضية وقد بلغ من الوجدان الفردي ما يعد بمثابة جائزة سنية وانتصار له. وانه الآن يبني وجداناً اوسع. ان الوجدان الجامع الذي ينظمه في وجدان عالمي سينصهر في وحدة روحية اكثر اتساعاً. هي الانسانية. اما انا فاطرح بذور وجدان عالمي والذي هو وحده يمدكم برؤية جميع واجباتكم وحقوقكم وبوسعه ان يقود كل عمل من اعمالكم بل ان يحل كل سؤال تأتي به كلمة لماذا.

دونكم تخطيط السمت الذي سنتبعه. وليس مسيرنا عليه للمعرفة فقط بل وللعمل ايضاً. ومتى اخترق النور حجب العقل وجب على القلب ان يلتهب بالتأثر ليسير وراء العقل الذى قد ابصر.

الصعود هو الفكرة السائدة، ان الله هو المدار. وهذا البحث هو اكثر من تأليف علمي فلسفي، هو وجهة جديدة تعطى للفكر الانساني. ما هو ثورة هدامة جاحدة تحمل الظلم والفوضى، بل هو بان وموحد وخالق. وهو يقودكم نحو نظام وتوازن هما دائماً أتم واشمل. ولكي نساعد على ولادة هذا الوجدان الجديد لنحث خطى هذا الانقلاب العتيد الذي يفرضه التطور فرضاً، من الانسانية الى ما فوق الانسانية، هذا الانقلاب الذي سيهبنا «الانسان الكامل» راعي المدنية الجديدة للألف الثالثة.

الفصل السابع — العالم في اشكاله الثلاثة : الجامد والديناميكي والآلي*

وبعد ان بلغنا هذه النقاط بوسعنا ان نقرر الخطوط الكبرى المواضيع الاساسية التي سنتبسط فيها بعد بطريقة تحليلية.

انا لا اقول لكم : لنلاحظ الظواهر ثم نستخلص النتائج ونبحث عن مصدرها. ولكن اقول : هذه هي لوحة العالم، والعالم هو وحدة تشمل كل ما هو كائن. ويمكن استشفاف هذه الوحدة بشكل من اشكال ثلاثة : الجامد والديناميكي والآلي.

في الشكل الجامد يمكننا تمثل الوحدة الكلية في المتجزئات تمثلاً تجريدياً في لحظة من تحولها السرمدي فيتمكن انتباهكم من ملاحظة التركيب اكثر من الحركة بوجه خاص. العالم في حالته التركيبية متمضى (كالتركيب النامي) اعني بشكله الكلي مركب من اجزاء لم تضم الى بعضها مصادفة بل بنظام ونسبة مقدرة، وهي تنشد ابداً ان تتسق لغاية وحيدة.

في الشكل الديناميكي تعتبر الوحدة الكلية فيما هو في الحقيقة كائن : اي تحول سرمدي. العالم في حركة دائمة. الحركة معناها خط مسير الاجرام* وهذا معناه غاية او نهاية يجب بلوغها. فالشكل الديناميكي في الواقع منصهر في الشكل الجامد الذي عزلناه لنسهل سبيل الملاحظة والدرس. فالحركة هي كحركة العضو النامي. هي عمل اجزاء متناسبة متعادلة. وهكذا فإن فكرة الحركة البسيطة تتحدد وتتم في تحول اكثر شمولاً وليس هو بحركة فيزكية فقط ففكرة خط مسير الاجرام تتجسم في فكرة اوسع الا وهي التطور نحو هدف ما.

وليس الشكل الآلي غير فكرة الحركة المعزولة عزلاً تجديدياً لنتمكن من تحليلها بطريقة اصلح ونستولي على المصدر ونحدد القانون بواسطة درس خط مسير الاجرام المثالي لحركات الظواهر. هذا هو درس القانون باعتباره شكلاً ونموذجاً للتحول.

خلاصة : الشكل الجامد يرينا العالم في تركيبه وشكله. والشكل الديناميكي يرينا اياه في حركته وتحوله. والشكل الآلي في مصدره وقانونه. وليست هذه غير اشكال واصطلاحات تختلف عن الظاهرة نفسها واما هي في حقيقتها كلها فملتحمة دائماً وفي اي مكان.

ومن فحص هذه الاشكال الثلاثة ترتفع الفكرة العملاقية التي تسيطر على العالم كله وكيفما لاحظناه كمركب عضوي نام، او تحول، او قانون، نصل اي نرتفع الى المبدأ الوحيد الى الفكرة المركزية التي تدبر العالم. فهذا المبدأ او هذه الفكرة هو نظام.

تصوروا الى اي اصطدام هائل نستهدف اذا لم يسد النظام كسيادة الملك العلام. عمل جد مركب هو هذا المخلوق، تحول لا يتوقف ابداً. ومبدأ كهذا فقط بوسعه ان يقيم التوازي في حركة واسعة كهذه. كل ظاهرة في كل حقل لها خط معلوم لتبسطها ولا يمكن له ان يتغير وهو قانونها المنظم المنسق حسب القانون الاكبر. لها ارادة خاصة بها كي تحيا في هيئة تتوحد بها وتتحرك لتبلغ هدفاً معيناً هو علة كينونتها. انها مقذوفة بسرعة خاصة بها وبجرمها مما يهون التفرقة بينها وبين غيرها من الظواهر الاخرى.

وأنّى لكل هذا ان يتحرك دون ان ينهار في بلبلة او كارثة

* Aspetto Statico, Dinamico, e Meceanico dell'Universo

* traiettoria

اذا لم يخطط بشكل لا يقبل النقض ؟ وانتم أني سرتم وتوجهتم وفي اي وقت تصادفون مصدر هذا القانون العلوي. ان حياتكم كأفراد وتاريخكم كأمم وحياتكم الاجتماعية كل هذا له قوانينه لا بل ان احصاآتكم حسب مبدأ الارقام تتلقى هذه القوانين وبوسعها ان تعلمكم بعدد الولادات والاموات والجرائم التي ستحدث على وجه التقريب في السنين القادمة .

وللحقل الاخلاقي والروحي ايضاً قوانينهما. واذا كانت حالتها المركبة تضيع اثرهما فالقانون باق حي في هذا الحقل وذلك بنسبة رياضية صحيحة ، ولا اتكلم عن الظواهر الخاصة بعلم الحياة الفلكية والفيزيكية والكيمية . اذا رأيتم انكم قادرون على الحركة وانكم تعملون لتبلغوا نتيجة ما ، فذلك لان كل شيء بقربكم يتحرك في النظام حسب قانون معين ، وعليه تتكلون بصورة دائمة وهو وحده يقدم لكم الضمانة الكافية لدوام الفعل ورد الفعل . . هو قانون قابل للتأثر والاحساس ، مركب تركيباً عجيباً في كل شبكة اندفاعاته وارتداداته . قانون كالمطاط يطبق على كل شيء ، ويعدل كل شيء . صنع من اتساعات لا تحد تضم بين جوانبها كل المحتملات . لكنه مع ذلك قانون وابداع هو قانون ، في مسيره صحة ودقة الرياضيات .

هو نظام اوسع واقوى من عدم اللانظام وهو يعانقه ويقوده نحو اهدافه . هو تواز اوسع من عدم التوازي يحتوي المكان ويحده فلا سبيل الى اجتيازه . التوازي والنظام هما ايضاً الخير والسرور . . القانون هو واحد ، في كل الحقول ، والسرور هو اقوى من الألم الذي يصبح اداة للسعادة . والخير اقوى سلطاناً من الشر وهو يقيده داخل حدوده .

ان الفوضى والشر والالم حالات موجودة ولكن وجودها فقط كرد فعل شاذ ، كدفعة معاكسة ضمن اسوار غير منظورة لا يمكن اختراقها . هذه هي الحقيقة ولو كان من الصعب تتبع اثرها من قبل عقلكم الذي يلاحظ المادة وكونها وان كان عند اقصى بعد من مركز العلة الاولى ، يحتوي كل المبدأ ويحافظ عليه ويخفيه في اعماقه كسر خطير .

لا تخلطوا النظام ووجود القانون بحركة آلية ميكانيكية وبمذهب قدري محال . ولنضرب مثلاً على ذلك : امام ارادة القانون لكم ارادة الاختيار ولكنها ارادة صغرى تحيط بها الاسوار ، نعم انتم تستطيعون الحركة حسب هواكم ولكن كالمتجول في حديقة ليس الا .

وبذلك ينحل الصراع الذي كان عقدة لا تحل بين المذهب الجبري والقدري .

مصطفى آل عيال

الى الشعراء

☆

استيضاح موجه الى الشعراء . والمرجو من حضراتهم ان يتفضلوا بتقبل الجهد والمشقة اللازمين للاجابة على الاسئلة التالية بدقة بالغة لان الهدف هو البحث العلمي . كما اننا نرجو ألا يتقيدوا ببعض الاراء الشائعة في هذا الموضوع لان الحقيقة العلمية لا يصل اليها الا البحث الدقيق الخالص من شوائب النزعات المختلفة والآراء المبتسرة .

***

١) اذا استطعت ان تتذكر عملية الابداع كما جرت في آخر قصيدة لك فالرجا ان تتتبع حياتها في نفسك ؟ هل عاشت في نفسك صورها وحوادثها كاملة قبل لحظة التأليف ؟ ام هل بزغت وقت التأليف فحسب .

واذا كانت قد عاشت قبل التأليف فهل عاشت حياة جامدة اي انها ظهرت فجأة كاملة وظلت كما هي حتى انتهيت من كتابتها ام تطورت في حياتها قبل لحظة النظم او أثناءها وجعلت تمتلئ وتنضج في بعض نواحيها وتتضاءل وتتلاشى في نواح اخرى ؟ .

٢) واذا صح انها تطورت وتغيرت فهل تمارس انت عملية تغييرها ام تشعر ان الامور تجري بعيداً عن متناول قدرتك وانتباهك وكل ما هنالك انك تشهد آثار التغير ؟ .

٣) ألك عادات تمارسها وقت التأليف ؟ ام لا ؟ جو خاص - حجرة خاصة - قلم خاص - حبر خاص . . . الخ) .

٤) اتشعر بوجود صلة بين احداث حياتك الواقعية وبين ما يرد في قصائدك من احداث وصور ؟ اذا كانت هناك صلة فالرجا توضيحها بشيء من التفصيل ان امكن واذا لم تكن هناك صلة فلوحدثنا الشاعر عما يشعر به ازاء ما يرد عليه من صور واحداث يضمنها اعماله . أيشعر من اين تأتي وكيف ؟ .

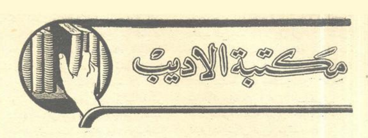
٥) أترى نهاية القصيدة قبل ان تبلغ هذه النهاية ؟ واذا كان الامر كذلك فهل تراها واضحة ام لا ؟ واذا لم تكن تراها فما الذي يحدد لك ان هاهنا قد بلغت النهاية واذا كنت تراها فهل تنتهي القصيدة فعلاً حيث كنت تقدر لها ؟ .

***

نرجو الاجابة مع الاستشهاد بأمثلة كلما امكن ذلك والاسهاب في الاجابة مشكور لصاحبه ومرغوب فيه مع مراعاة التقيد بجوهر السؤال . كذلك نرجو ان يبتعد حضرات الشعراء عن التعميمات ذات الصبغة العلمية . ويتحدثوا عن انفسهم من وحي تجاربهم الخاصة . واذا عن للمجيب سؤال يرى انه يزيد الموضوع جلاء ، فليقترحه وليجب عليه واذا اراد ان تحفظ اجابته سراً دون ان تقرن باسمه في البحث فليشر الى ذلك في صراحة .

***

ملاحظة : نرجو ان ترسل الاجابات باسم «جماعة علم النفس التكاملي» .
حضرة الاستاذ الدكتور يوسف مراد - القاهرة - شبرا شارع روض الفرج رقم ٤٧ .



مهد الادب

للاستاذ قدري العمر — ٢٣٥ صفحة — مطبعة ابي الفداء — حماه

يضم هذا الكتاب القيم فصولاً يتناول بعضها الحديث عن الادب من حيث مفهومه وغايته ، ويتناول بعضها الآخر الحديث عن بعض اعلام الادب في العصور القديمة . وقد كان احرى بالمؤلف ان يدعو كتابه « من تاريخ الادب » لانه في الواقع تسجيل وتحليل لبعض الآثار الادبية ، لا إنتاج ادبي فيه صنعة الخلق .

والمؤلف في فصله الاول يحاول تعريف الادب على صعوبة تعريفه ، ويقارن بينه وبين العلم ليخرج سمة كل منهما فيقول : « ان العلم مفصول عنا مأخوذ عن غيرنا او من حولنا على الاقل ، اما الادب فليس مفصولاً عنا مطلقاً ، بل هو متصل بنا ، كامن بين جوانحنا وبين طيات نفوسنا » وهذا تعريف موفق يتوسل المؤلف للتدليل عليه بأمثلة حسية غاية في الوضوح ، فيها التفهم والدقة جميعاً .

ويطرح المؤلف في الفصل الثاني « الادب متعة وفن » سؤالاً يجيب عليه : هل يقصد الادب الى المتعة ام يقصد الى الفائدة وحدها : ام يقصد اليهما معاً ؟ ثم يستشهد باقوال مؤلفين او نقاد في الاجابة ، ونحن نرى في أصل هذا التساؤل مجالاً للشك بصحته ، فالمتعة والفائدة يتزجان على ما نعتقد امتزاجاً وثيقاً حتى لا يبقى سبيل الى تفريقهما او تميزهما ، فكثيراً ما يكون في المتعة نفسها فائدة ، بل ان المتعة الحق لا بد ان تنطوي على فائدة ، وان كان فائدة شعورية فحسب ، فانما الذوق الفني — مثلاً — الذي يعتبره المؤلف فائدة من فوائد الادب ، هو فائدة ومتعة معاً .

ونحسب انه كان على المؤلف ان يكتفي بعرض متع الادب وفوائده دون ما تفريق وتقسيم ، لا سيما وانه لم ينته من هذه القضية الى نتيجة شافية وجواب ناجع على السؤال ، ولا يسعنا الا ان نأخذ على المؤلف الفاضل انه لم يكن يدلي برأيه الخاص في الموضوع الذي يعرض له ، وانما يجتزىء بعرض آراء الآخرين ، وهو الى ذلك لا يناقشها ولا يحاول ان يستخرج منها حلاً او نتيجة .

وفي فصلين آخرين يتناول المؤلف الكلام عن الاسلوب والاخلاق في المحادثة والابتكار في البيان ، فيحفظ للاسلوب قيمته وقدره وأهميته بعد ان يستعرض الآراء المختلفة في ماهيته وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن بعض الشعراء والكتاب القدامى فيعرض لابي نواس وشعره ولابن المقفع وكتابته في رسائله وابي العتاهيه وابي تمام وشعرهما . ويجد القارىء في هذه الفصول تحليلاً جيداً لشاعرية المبحوث عنهم ، وتفصيلاً لميزاتهم ومواهبهم في كثير من الدقة والاحكام ، ولهذه الفصول قيمة تتعدى فائدة الطلاب الى لذة الاديب بالبحث الممتع والتحليل الصادق الذي يكشف في كثير من الاحيان عن التماعات ذهنية موفقة للمؤلف ، فضلاً عن ذوق مرهف في تفهم الشعور لدى الشاعر او الناثر وقوة التعبير عنه .

ولا بد ان نلاحظ اخيراً ان للمؤلف اسلوباً رائعاً ينعم بالسلاسة والعذوبة والفنى اللفظي والشعوري والفكري جميعاً ، وينم عن ان الاستاذ قدري العمر اديب متذوق موهوب ، بوسعه ان يجلو هذه الهبة في فصول من الادب الذاتي المبدع .

سهيل ادريس

١ — على الشاطئ المسحور

للاستاذ محمد عبده غانم — ١١٠ صفحات — مطبعة فتاة الجزيرة — عدن

هذا ديوان شعري آخر تخرجه المطبعة العربية للناس وهو باكورة انتاج الشاعر وقد جعله ثلاثة اقسام سمى قصائد القسم الاول بالخافقات لانها تمثل بعض ما قاله وهو يحس بخفقات قلبه الاولى للحب والجمال . وسمى قصائد القسم الثاني بالمحلقات لانها جاءت وهو يحاول التحليق في اجواء الشعر ، وسمى القسم الثالث بالسابقات لانها قصائد ست اشترك فيها بمباريات كان التوفيق حليفه فيها جميعاً .

ويتجلى لنا من هذا الديوان ان صاحبه قد اوتي شاعرية فياضة زاخرة بمختلف العواطف النبيلة التي تجيش بها نفس شاعرة يدلنا على ذلك اثنتان وثلاثون قصيدة هي كل ما تضمنه هذا الديوان من قصائد .

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل يسرني ان اقدمه الى قراء العربية عامة والى قراء عدن خاصة الذين يتألم الشاعر من نفسيتهم « التي لا تقيم للقيم المعنوية وزناً ... »



٢٥ت١ ١٩٤٧ – تم جلاء القوات البريطانية عن الاراضي العراقية ، وستعود الحكومتان البريطانية والعراقية الى ما نصت عليه معاهدة التحالف بينهما .

٢٧ – طلب الاتحاد السوفياتي وضع فلسطين تحت اشراف مجلس الامن ريثما يتحقق استقلال الدولتين العربية واليهودية ليتاح له حق الفيتو في كل قرار يتخذ اثناء فترة الانتقال .

– تكلم المستر ترومن بمناسبة يوم البحرية فقال : ان من الضروري ان تحتفظ الولايات المتحدة حفظاً للسلام بقوات كبيرة في العالم الذي ما زال مزعزعاً إثر كارثة الحرب .

٢٨ – طلب المستر تشرشل من مجلس العموم حجب الثقة عن حكومة العمال لعجزها عن التغلب على الازمة الاقتصادية التي تجتاح بريطانيا .

– وصل الى لندن الكونت سفورذا وزير خارجية ايطاليا ليبحث مع المستر بيفن مسألة تعديل معاهدة الصلح الايطالية في افريقيا .

٢٩ – توترت العلاقات بين حكومتي الهندوستان والباكستان بعد انضمام ولاية كشمير للهندوستان .

– بدأت محاكمة زعيم المعارضة الرومانية جوليو مانيو وثمانية عشر متهماً آخرين بالخيانة العظمى .

٣٠ – وقعت ٢٣ دولة من الامم المتحدة اعظم اتفاقية تجارية ، تعتبر اساساً لانشاء مؤسسة عالمية .

٣١ – طالبت الهند من اللجنة السياسية للامم المتحدة منح كوريا استقلالها وارسال لجنة دولية لمراقبة الانتخابات فيها وجلاء قوات الاحتلال .

١ تشرين الثاني – سقط اقتراح الاتحاد السوفياتي بادانة الولايات المتحدة وبريطانيا وتجريمها لتقديمها الملجأ والملاذ الى مجرمي الحرب

– اقترح مندوب الولايات المتحدة في اللجنة الفرعية لتقسيم فلسطين بأن تباشر هيئة الامم المتحدة بتقسيم فلسطين في اول تموز سنه ١٩٤٨ اما الحكومة البريطانية فانها لن تساعد على تطبيق سياسة لا يقبلها اليهود والعرب بالقوة .

٣ – فقد حزب العمال البريطاني نصف مقاعده بعد فوز حزب المحافظين في الانتخابات البلدية فوزاً عظيماً .

– صرح البنديت نهرو بـان بأن الهند ارسلت قواتها الى كشمير للمحافظة على مصالح الشعب وستسحبها حين يستتب الامن .

– افتتح الرئيس عصمت اينونو الدورة الثامنة للجمعية الوطنية بخطاب اشاد فيه بالعلاقات الطيبة مع بريطانيا والعالم العربي ويأمل ان تعدل روسيا عن مطالبها في الاراضي التركية .

٤ – نشرت وزارة الخارجية الاميركية كتاباً عن الاحوال السياسية العالمية القت فيه اللوم كله على السياسة الروسية في عدم عودة العالم الى الاستقرار في زمن السلم .

٦ – صادق شاه ايران على قرار المجلس النيابي القاضي برفض طلب الاتحاد السوفياتي بمنحه امتيازات للنفط في شمالي ايران .

– اقر مجلس العموم البريطاني مشروع قانون منح بورما الاستقلال التام .

– انذر الامير فيصل آل سعود وفود هيئة الامم المتحدة بأن دولته تنسحب من هيئة الامم اذا اسفر التصويت في الجمعية العمومية عن قبول تقسيم فلسطين بصورة رسمية .

– خطب الرفيق مولوتوف بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة الروسية فقال : ان روسيا تملك في قبضتها الآن اسرار القنبلة الذرية .

٧ – وافقت اللجنة السياسية للامم المتحدة على انشاء « الجمعية الصغرى » وقد اعلنت البعثة السوفياتية انها لن تشترك في اعمال هذه المنظمة الجديدة وتبعها في ذلك بيالوروسيا واوكرانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا .

٨ – وجهت الحكومة المصرية الى حاكم السودان مذكرة ردت فيها التوصيات التي وضعها المؤتمر الاداري للسودان من اجل انشاء مجلس تشريعي وهيئة تنفيذية بالسودان .

١٠ – قدم الجنرال مارشال الى اللجنة المشتركة التي تضم اعضاء الشؤون الخارجية بمجلس النواب والشيوخ بياناً عن مقدرات مشروعه لمساعدة اوروبا وطلب اعتماد ٢٠ الف مليون دولار لتنفيذ البرنامج في مدة اربعة اعوام .

– طلب احد عشر نائباً من نواب العمال في مجلس العموم بانكلترا الغاء مجلس اللوردات لانه يقف حجر عثرة في سبيل تقدم الجماعات الحرة في البلاد .

١١ – اتفقت الولايات المتحدة مع روسيا على حل وسط يقضي بتقسيم فلسطين الى دولتين يهودية وعربية وقد وضعا برنامجاً يتلخص فيما يلي : انهاء الحكم البريطاني وسحب الجيوش البريطانية قبل اول نوار المقبل وايجاد لجنة خاصة بتقسيم فلسطين مؤلفة من ثلاث الى خمس دول من الدول الصغرى المحبذة للتقسيم .

– ختم وكلاء وزراء الخارجية ابحاثهم حول الامور التمهيدية المتعلقة بوضع الخطوط الكبرى للمعاهدة الالمانية دون الوصول الى تسوية حول نقاط الخلاف .

– انتخبت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة اوكرانيا خلفاً لبولونيا في عضوية مجلس الامن الدولي بعد ان انسحبت الهند من ترشيح نفسها .

– قررت بريطانيا ان ترفض فرض التقسيم على فلسطين بالنيابة عن الامم المتحدة وروسيا .

١٣ – صرح السيد الكسندر كادوغان في اجتماع اللجنة الفرعية لتقسيم فلسطين بـأن بريطانيا تنوي سحب جيوشها من فلسطين في اول آب سنة ١٩٤٨ .

– منحت جزيرة سيلان حكماً ذاتياً ضمن الامبراطورية البريطانية .

١٥ – وجه السيد ادريس السنوسي نداء الى الشعب الليبي ناشدهم فيه الوحدة والاصرار على المطالبة بالاستقلال التام ليتسنى لهم الانضمام الى الجامعة العربية .

١٨ – رفضت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة تثبيت قرار السنة الماضية بادانة الجنرال فرانكو الاسباني .

١٩ – اقترحت اميركا في اجتماع اللجنة السياسية لهيئة الامم المتحدة الغاء حق الفيتو فرفضت روسيا هذا الاقتراح .

– سقطت وزارة المسيو رامادية الفرنسية .

٢٠ – عقد قران الاميرة اليزابيت على الامير مونتباتن بكنيسة وستمنستر في لندن .

– كلف رئيس الجمهورية الفرنسية المسيو بلوم بتأليف الوزارة الفرنسية الجديدة .

فهرست الموضوعات

سنة الاديب السادسة [١٩٤٧]

راجع بريد الاديب تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة « شعر » . والاخبار العلمية تحت مادة « علم » والقصص تحت مادة « قصة » . ومكتبة الاديب تحت مادة « كتاب »



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهرست الكتّاب

سنة الاديب السادسة [١٩٤٧]